

لؤي حسين

الفقد

حكايات من ذاكرة متخيلة لسجين حقيقي

أبو عبدو البغل



ليس في النص أي خطأ مطبعي أو إملائي
أو نحوي... إنما الخطأ هو في السجن...

لؤي حسين

الفقد

حكايات من ذاكرة متخيلة لسجين حقيقي

✱ **الفقد**

حكايات من ذاكرة متخيلة لسجين حقيقي

✱ **تأليف: لؤي حسين**

✱ **الطبعة الأولى 2006**

✱ **الناشر: دار الفرات للنشر والتوزيع**

لبنان - بيروت - شارع الحمرا - بناية رسامني. هاتف 750054

www.alfurat.com

دار بترا للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق. 5128483

www.darpetra.com

✱ **جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو استعماله بأي**

شكل، إلكتروني أو ميكانيكي، بما في ذلك النسخ، التسجيل، أو عبر أي أداة

تخزين أخرى، من دون إذن خطي من الناشر.

ما عدا حقوق السجن فهي مباحة للجميع.

الاهداء

إلى نبادا التي احتملت العيش برفقتي رغم احتراق روعي طوال
هذي السنين.

وإليها لتحملها مواتي طوال فترة كتابتي هذا الكتاب.

وإلى ليلي وريما اللتان قيص لهما أن تعيشا مع أب مرعوب من
ألا يبرح سجنه يوما ويأتي إليهما.

إن تعثرت تتابع الرقم ... فحسب

«كلام سينما»

ليس بداهة أن يكتب السجين عن سجنه كما يتخيل البعض. وليس واجبا عليه أن يروي حكايات السجن فضحا للسجان. فالسجن بعد أن يمضي يتحول إلى حكاية تافهة بالمقارنة مع معاناة السجين. لدرجة أن البعض يتجنب التطرق بالحديث إليها خشية حضور ذكرى آلامه. وأنا من هؤلاء البعض. فلم أحك عن سجن كبير طوال أربعة عشر عاما مضت على خروجي منه. أذكره كثيرا. لكن ذكره غير حكايته. حكايته هي حكاية السجين وليست كلاما عن السجن. وشتان بينهما، فالحديث عن السجن أهون وأيسر وأقل وجعا، رغم أنه أكثر خطرا من الناحية الأمنية.

حكاية السجين حكاية مرارة وذل، اعتراف بالخزي والخسارة. وحكاية السجن فعل انتقام وثأر وتعويض نفسي.

توهمت أن سكوتي عن حكايات سجنى سيمكننى من دفنها في خرابات الذاكرة. إذ قدرت أن طيها وحجبها عن حضوري قد يمكنني من الانعتاق منها ومن كبحتها لعزيمتي. لكن تبين العكس من ذلك. فدفن إحساس السجن وتجربته هو عكس مألوف الدفن، فهو لا

يتطلب الطمر بالتراب والحجارة عميقا في الأسفل إبعادا لرائحته وإقصاء لذكراه، بل يتطلب نبش قبور الذاكرة ونصب الجثة في مواجهة العين وتحت الأنف. أمام عينيّ وعيونكم حتى لو زكمت أنوفنا. فرائحة السجن لا تغور في الأعماق ولا تتحلل في البواطن، لا بد لها، لكي تهجرني، أن تملأ كل الأنوف.

الآن قررت أن أدفن حكاية سجني وأعلن عليها الحداد، بأن أبوح ببعض حكاياتها على العلن.

وينتصب السؤال: لماذا يكتب السجين تجربة سجنه أو تجربة حياته بعده؟

الآن السجن تجربة فيها من الفردة ما تجعل الكتابة عنها تشكل إضافة واضحة لتنوعات الحياة الإنسانية الأخرى. أم أنه يكتب مدعيا نشر رسالة توبة لا يمكن لغيره حملها ونشرها. أم أنه يعرض مظلمة متعشما نيل تعاطف الناس. أم أنها محاولة للتفريج عن كربه وضيق صدره، أم أن في كتابتها فرصة للشهرة؟

ربما كل هذا أو شيء من كله دفعني لأكتب هذا الكتاب قاصدا نشره وليس إخفائه في أدراجي.

ما كان ليكفيني سرد حكاياتي في سهرات الأصدقاء ومتابعة عيونهم ووتيرة تنفسهم لأضبط وقع أقاصيصي عليهم، فأتحكم قليلا أو كثيرا بأثرها عليهم أو بتأثرهم بها، فأديرها تارة أستعطفهم إن كنت أشعر بحاجة إلى العطف، وتارة لأبكيهم إرضاء لعدوانيتي، أو أنافسهم بامتلاكي مأساة تفوق مآسيهم، أو ببطولة مدّعاة ما طالوها

ولم أطلها يوما. أو أتعالي عليهم بأني القوي الذي يجتاز المحن ويبقى قادرا على الفعل والحياة والعشق.

ليس لدي إجابة واضحة أو كافية عن سبب هذه الكتابة.

فلقد كتبت النص الأول وأنا في حالة انهيار وانطواء وخسران. ولم أكن أقصد حينها نشره أو إطلاع أحد عليه. لكن ما إن أتممته حتى شعرت براحة وتخفف وانطلاق فدفعته للنشر في الصحافة. فجاءت الكتابة التي تلتها مؤسسة عليه، فاستمدت غايتها من فكرة إتمامه أو إتمام حدادي الذي بدأته به دون قصد. فصارت كل هذه الكتابة دون قصد أيضا.

تعبت خلال الكتابة وأتعبت من حولي. فاستحضر ذكريات السجن استحضار لرعبه وقهره. سهرت لياالي وحدي أكتب وأتذكر وأبكي خوفا ومقتا وحسرة. ابتعدت عن كل الأعمال والأفعال المحفوفة بالمخاطر، إذ عز علي تمييز الخطر والسلامة في لحظات كثيرة وطويلة حينها. فذهبت إلى أصدقاء السجن القدامى أحكي لهم عن تجربتي وأحثهم على كتابة تجاربهم. بل إنني حاولت استكتابهم، وكذلك فعلت مع سجناء أعرف عنهم ولا أعرفهم.

لا أدري لماذا تأخرت بنشر الكتاب بعد إنجازه أكثر من سنة. ربما استرخيت واكتفيت، وربما تخوفت من أن أنشر كتابة غير التي اعتدتها أو عرفت بها. فالكتابة الصحفية السياسية ينقصها الخيال وقلة الرصانة وكثرة الأنا. أما كتابتي هذه فينقصها الحكم القاطع

ومسارات الأسباب والنتائج، وغياب الوجدان والعواطف، إذ تأخذ صدق الحكاية وتقدمها ضمن تخييل منفلت.

وربما تأخري بالنشر هروبا من عدم ثقتي بأني جاهز لأن أطرح خصوصياتي على الملأ، وأتقبل تدخل الناس فيها دون أدنى حق لي بمنعهم عن التدخل فيها. وكيف لي أن أتقبل أن يتعاطوا معها ويحكموا عليها باعتبارها نص وليست آلاما وأوجاع. وكيف لي أن أسمع رأيا ليس معجبا بالمادة أو شخصا ينفر منها ولا يحترمها على أنها خصوصيات. كيف سأدافع عنها وأحاجج بها وهي ليست رأيا. فحين أكتب رأيا سياسيا أتمكن دوما من الدفاع عنه إلى أقصى حد، ويمكنني بعد حين أن أرفضه وأتخلى عنه لقناعة جديدة. أما هنا فلا توجد كلمة يمكنني الرجوع عنها، ولا توجد فكرة يمكنني أن أجادل بها أو أقنع الناس أن يتبنوها.

لهذا، ربما، عبثت بالمادة المستذكرة أعرضها ضمن مناخ تخييلي يمكنني من التنصل من أي تفسير محدد لأي عبارة واردة، فأحيل عدم دقة المعنى للصياغة المتخيلة الحاكمة للسياق.

ليس في حكاياتي تسجيل شهادة عن السجون السورية، فكثيرون غيري أقدر مني على ذلك.

كنت سجيناً وصرت سجيناً سابقاً. كلاهما حال وليساً نعتاً، فلم يمكنني تغيير حالي «السجين» عندما كنت في السجن، وكذلك لا يمكنني تغيير حالي «السجين السابق» لا بمساعدة طبيب نفسي ولا بجهد ذاتي، وبالتالي فالأصح أن نستخدم اسم

مفعول فيه كالمسجون أو المحبوس واقع عليه الفعل. فكيفما اتجهت وحيثما مكثت ستواجهني السلطة وتحاصرني بأني سجين سياسي سابق. نعم هي كذلك، فحينما كنت في السجن كنت متهما عرفيا باعتقادات سياسية لا تقبل بها السلطات، ويعد أن خرجت من السجن صرت متهما بأني كنت في السجن دون أن يتطلب ذلك معرفة متهمي سبب سجنني.

ورغم أنه لا يمكنني أن أعمل أو أسافر أو أكتب أو أفعل أي شيء بدون سماح أمني أو على الأقل معرفة المخابرات بجزئيات حياتي اليومية، رغم ذلك ممنوع علي التصريح العلني أو الجهر بأني «سجين سابق».

لهذا ستلاحظون تجنبني طوال الكتاب عن ذكر أي مفردات أو تواريخ أو أسماء صريحة، إذ قد يعتبرها السادة الأمنيون إفشاء لمعلومات أمنية. وكأنني دخلت السجن طوعا أو باتفاق معهم حتى أكون مؤتمنا على تلك المعلومات.

لكن لم يقتصر حذري على الناحية الأمنية فحسب. فقد نقصتني الجراءة عن التطرق أو عن تناول مواضيع ذات حساسية اجتماعية. فالسجين السابق هي أيضا قيمة اجتماعية، إذ ينظر الناس لصاحبها نظرة ملتبسة وتحكمه بضوابط مختلفة عن الطلقاء.

وكذلك أعفيت نفسي من الحديث عن منغص كبير في السجن، خاصة في مراحل المتقدمة، وهو بعض أوساط السجناء الذين يعيش معهم السجين فيحيلون زمن سجنه جحيما فوق جحيم.

خاصة في الأوساط الحزبية والسياسية المتطرفة أو الطفلية البارعة
بممارسة كل أشكال وأدوار الاستبداد.

ربما لا يهدأ لأحدنا بال ما لم يحكي حكايته ذات مرة. فكيف
لشخص قضى سنوات حيوية من شبابه في السجن، كيف له ألا يحكي
عن ضياع سنوات من عمره لم يكن فيها أي مجال للشباب والصبا
والصبو. بل سيكون شبابه وصباه، من دون أدنى شك، عبثا عليه في
السجن، بل وأحد ضواغط السجن. وحين سيخرج من السجن إلى
الحياة سيكون صعبا عليه التعايش معها من دون شبابه الذي ضاع
لحظة ظلم أرعن.

لم أسمعهم لكن لا بد أنهم قالوا لي حينها: عليك بالسجن حتى
تحبه... ولم أحبه حتى اللحظة.

سلم الآلام*

من ذاكرة ما تحضرني رغما عني منذ عشرين عاما، سأقتبس كلاما وأرويه كما هو بما يحمله من عدم الأمانة. فهو ككل الذكريات تحضرنا كما نراها وليس كما حدثت، تختلط بمشاعرنا وبمواقفنا منها ومن حالنا. إنه كلام ليس أكثر، لا يبتغي غير أن يحضر ويكون بيننا، أن يكون أحدنا. يبدأ من ذكرى صبيحة أحد أيام القرن الفائت، إنه ليس صباح يوم بل بداية يوم، لكنني كنت حينها لما أزل لا أميز بين لغة الحياة ولغة السجن. فالمكان هنا لم يتعرف بعد على تباين الليل والنهار، وتفاوت برودة المساء وقيظ الظهيرة في هذا التميز. نوع وجبات الطعام هو الذي يوقت تقريبا ساعات اليوم، وفي ما بعد سأعرف يومين من الأسبوع من كسرة العظم التي تقدم في غدائهما.

كان صباحي الأول بعد أطول ليل يمكن أن يضبطه توقيت وتزمين. فتَح الباب من لا يعرف اسمي ولا سبب وجودي هنا، ابتعدَ عن الباب يحمي نفسه من رائحة المنفردة (اسم الزفزانة التي تتسع لموقوف واحد) وطلب مني الخروج. أشار إلى الطميشة (عصابة عيون)، عرفتها وعرفت اسمها من ليلة البارحة ولم يتسن لي الوقت لأحدد موقفا منها، فهي غريبة عليّ لم أعرفها قبل أمس. كل الأشياء هنا غريبة وجديدة، قد يوجد منها أو مثلها في الحياة لكن بتسميات أخرى

* جريدة السفير 2004/6/7.

ولاستخدامات أخرى. الرائحة هنا غريبة، ليست مختلفة بل غريبة، والغرف كذلك، الأبواب والحديد أيضا، والبشر وأنا، أنا غريب عن نفسي وعن حالي. الشيء الوحيد الحقيقي هنا هو الكهرباء هي التي تضيء وهي التي تكهرب. ما عدا ذلك عماء.

تناولت إحدى الطميشات المعلقة، حسب ما أشار لي، ووضعتها على رأسي؛ في غاية اللطف تركوني أضعها بنفسي استمتع باستقلالية أدائي، وكأنهم يعرفون ميلي لأنجز أعمالي بنفسي. هذه الطميشة ليست للزينة والتحلي، فهي بشعة ومقرفة، ولا حاجة للذكاء لأعرف أنهم لا يريدون أن أراهم. ليسوا خجلين من فعلتهم فرجال بلادتي ونساؤها لا يخجلون من إهانة الإنسان وإذلاله، بل ذلك، أحيانا، مصدر مباهاة واعتزاز يسوّغه تكفيرنا لهذا الإنسان بما نعتقده أو نؤمن به. إذن لماذا حلفائي هؤلاء بصراعي ضد الإمبريالية والصهيونية لا يريدونني أن أراهم؟ حتما، خافوا إن عرفتهم وضعفت يوما في وجه الإمبريالية والصهيونية (لم تكن العولة قد ولدت بعد) أن أشي بهم، خاصة أنني ضعيف ووطنيتي قليلة وأنا شاب صغير معرض لأن أتنازل للإغراءات ولتوريط نفسي؛ أليس هذا ما سيقولونه لأهلي في ما بعد: احتجزنا ابنكم احترازا كي لا يتورط!! شكرا لغيرتهم على رعيّتهم. لا، لقد طمشوني لخبرتهم بأن الظلمة ترهب أعتى الرجال، ولأن الضريبة التي تأتي من دون أن أراها لها أثر مضاعف. يريدون أن أكون وحدي خلف طميشتي؛ فالعين مغرفة الكلام ومغرفة القوة ومغرفة الرحمة. ومن دون عيوني لن أغرف شيئا ولن أكون أنا.

دفعني بصفعة على مؤخرة رقبتني ليدلني على الاتجاه الذي علي أن أسلكه. وعرفت بعد ذلك بحين أنه كان علي أن أقطع المسافة بين الجناح الشرقي وساحة التحقيق. ولم يأخذ هذا الجناح تسميته بالشرقي من نوعية نزلائه، أي لكونهم شيوعيين من حملة أيديولوجيا شرقية، فقد نقلوني بعد يومين إلى الجناح الغربي. فهذه التسميات كانت نسبة إلى الاتجاهات.

المسافة التي ساقطعها إلى ساحة التحقيق ليست طويلة وليست قصيرة، كما أنها ليست وسطا. فهي لا تقاس بوحدات الطول بل بحجم المعاناة التي أقاسيها بين زنزانتني التي نسيت رقمها الآن وبين محققي. هي فضاغة الهلوسات التي أعيشها قبل أن أصل إلى رغبة محققي، حيث الحقيقة... حقيقة الوجع. وباعتباري ما زلت حديث العهد والخبرة في هذه الدنيا العجيبة، حاولت رفع معنوياتي وشد أزر نفسي مقاوما عثم الطميشة، لكنني صُدمت عندما غصصت بإنشاد: «يا ظلام السجن خيم/ إنني أهوى الظلام» الذي كنت أنشده ورفاقي دوما قبل هذا اليوم: ما حالي الآن لا أهوى هذا الظلام وخاصة ظلمة الطميشة؟

بعد عشر سنين من ذاك الصباح ربط طبيبي الفيزيائي قدمي إلى جهازه وأمال رأسي إلى الأسفل، كان يعالجني من إصابة متعمدة في عمودي الفقري، ولم ينجح، فنصحتني بالتعايش مع ألمي كشريك دائم في حياتي. تذكرت هذا اليوم وأنا على جهاز الطبيب، وقلت حينها: لو عرفت هذا العلاج قبل ذاك اليوم لظننت أنهم يعالجونني

مما سيفعلونه بظهري قصدا وعمدا وانتقاما لخداعي لهم في يوم تال
لهذا اليوم الذي أتهياه.

تسلمني من يعرف اسمي وغايتهم مني ممن لا يعرف. كان
استلامي وتسليمي بينهما مثل ورقة بين موظفي دائرة النفوس، لا
يهتمون إن كانت ورقة وفاة أو ميلاد، يوقعونها ويختمونها ويشيرون
لك بطرف يدهم مرة وحيدة إلى وجهتك التالية من دون كلمة ومن
دون أن يرفعوا نظرهم صوبك، ولا يجدون داعيا لتعزيتك بالوفاة أو
تهنئتك بالميلاد، ولا تتغير سحتهم.

هاتوا السلم، قالها قائد الحفلة. لن أخطئ كما في الأمس عندما
طلبوا الكرسي فظننت أن ما طلبوه هو نفسه الكرسي الذي أعرفه
ويعرفه كل الناس. لن أحسن الظن أو أسيئه هذه المرة وسأعتبر أن
المطلوب ربما سلم صغير كالذي تستخدمه بعض السيدات اللواتي
يملكن مطابخ واسعة وعالية، ليس كمطبخ أمي، ليضربني به، إذ لا
يجوز، وهو قائد الحفلة، أن يستخدم مثل مرؤوسيه كزجاجا مجدولا
من كابل هاتف صنعه الغربيون مزدوج الغايات مثل معايرهم،
يستخدمونه لشيء ويفرضون علينا استخدامه لغاية أخرى يريدونها
لنا. لا أظن أحدا يخالفني رأيي هذا بالغرب لأنه حقيقة ثابتة
تعلمناها منذ أول صف في المدرسة، وأثبت التاريخ صحتها وثباتها
وأكدتها سقوط صدام حسين الذي قال فيه أساتذتنا أن الاميركان
اخترعوه لنا مزدوج الوظائف وأننا لسنا مسؤولين عن ذلك: عذرا من
جميع العراقيين فهذا الزمن لهم، لكن لأسباب تقنية تزامنت همهمتي
مع صراخهم.

لماذا كل هذه القسوة والشدّة معي؟ لم يقل لي أحد أن الأمر سيكون فظيحا إلى هذا الحد، أنا شأني صغير ولا أعرف إلا القليل الذي لا يساوي كل هذا العذاب. يتهمونني بأنّي أعرف كل شيء وكل أحد؛ إنهم يخدعونني: هكذا علمني «قادتي»: يدّعون أنهم يعرفون عنك كل شيء ليجعلوك تظن أن «صمودك» لا جدوى له ولا معنى. لكنهم كانوا مصيبين و«قادتي» مخطئين، وكنت خاطئا. وهل كوني أخطأت في تقدير معلوماتي أو رغبت أن أكون بطلا كغيري يعطيهم الحق أن يذيقوني كل هذا الألم؟ هل يحق لهم كونهم يعرفون كل شيء عني أن يذلوني كل هذا الإذلال؟ هل يستحق ذلك هذا العقاب؟ فلطالما أخطأت، وكذلك جميعنا، في الامتحانات ومع الأهل والنساء ولم أعاقب بهذا الشكل. لا يوجد سلّم طبيعي يوصل إلى الذرى إلا هذا السلم فهو السبيل الوحيدة لبلوغ ذروة الألم. هل عرفوا عني أنّي أحب الذرى فأذاقوني ذروة الألم وذروة المهانة؛ لكنني لم أطمح يوما للذرى الكبرى فجلاً ذرايا ذروة نهد أو ذروة أنف امرأة أو ذروة هدبها. حمدا لله أنهم لم يعتقدوا أنّي أرغب ذروة الخازوق.

رأيت مثل ذلك في أفلام الكرتون التي لم أكن كبرت بعد على متابعتها، لكنهم كانوا هناك ينجون، لماذا أنا لا أنجو إذن؟ وما كانوا يتألّمون، فلماذا كل هذه الآلام التي أشعر بها؟ هل أنا ضعيف إلى هذا الحد لكي أتألّم أكثر من أبطال أفلام الكرتون؟ لا ... لا أقبل، فالضعف عيب، والألم الذي أدّعيه ليس للرجال، إنه للنساء اللواتي

كُتِبَ عليهن ألم الولادة، ألمي هو حمل المعلومات التافهة وفَرَجِي بولادتها.

لم يكن كأي سلم ينتصب متعامدا مع الأرض أو شبه متعامد، فهذا ألقوه على الأرض، عرفت ذلك عندما مدّوني (بدال واحدة) عليه، أو للدقة عندما شبحوني عليه كما قالها الزعيم، وربطوا أطراف الأربعة بإحكام، كلاً على حدة. لو أن هذا الحادث جاء بعد زيارتي الطبيب الفيزيائي لقلت أن هذا الزعيم وجماعته يقصدون تقويم اعوجاجات ظهري وقدمي، وأن يفردوا أصابع كفي التي انكمشت ولم استطع بسطها منذ حفلة البارحة، ولم يستقم ظهري منذ عرفت ليلة أمس ما سموه بالكروسي. أتمنى أن نعيد جميعاً مسند ذاك الكرسي وطراحته ونعيد تأهيله ليكون كرسيًا، فانا سأقبل الجلوس عليه عندما نلتقي حتى لو كان رخيصاً، ويمكن للجميع أن يبقوا جالسين على كراسيهم الوثيرة العالية. أنا يكفيني أن يعاد لذلك الكرسي فرشته لينتصب ظهري عندما أجلس عليه.

لماذا لا يعمل اللغويون على إنتاج مفردات دقيقة، توضح المعنى المحدد والدور المحدد للأشياء، فالكرسي والسلم والكهرياء والقفل وأشياء ومعان كثيرة يجب أن يكون لها مدلولها المحدد. التعذيب كلمة لا تناسب المعنى في هذا المكان، فالعاشق يقول عن عشيقته عذبتني ولها، والأم تقول لابنها عذبتني بشيطنتك. الحال في هذا المقام يحتاج لغة لا دلالات حية أو إنسانية لها. هنا المعاني نقية لا يشوبها التعدد أو التشابه، فالكلمات هنا أمهات لا اشتقاقات. كل الكلمات هنا تستقبلنا بـ«ال» التعريف أو تدبرنا بياء الملكية لتبقى

مفردة، فهنا العذاب وهنا الفراق وهنا الذل... هنا وجعي وهنا حبسي
وهنا عمائي. بدأت أظن أن هناك نوعين من الوجود: السجن والحياة،
لا أعرف من كان قبل الآخر، يصعب علي حسم هذه المعضلة.
فالفناء الموجود بالسجن يؤكد أنه كان البداية. وإن صح ذلك
فيمكن اعتبار تاريخ الحضارة هو تاريخ خروج البشرية من السجن.

قيل لي قبل ذلك: اصرخ تترج وتنج، وقيل لي: لا تصرخ فترتاح
وتنج. جريت كل السبل والأساليب فلم أرتج ولم أنج، فكل ما قيل لي
عن ذلك كان هراء. كان «شييت» بحسب الأميركيين. لا يسعدني
ما أقوله، ولا يشرفني ما عرفته. واني لخجل إن كان ما أسرده
صحيحا وأنه حدث ذات يوم ويحدث أي يوم في مكان ما مع أحد ما.
سأبقى أقول للجميع لا تقربوا السجن لا أنتم سكارى ولا أصحياء.
أعرف أن كلامي لن يلغي السجون: ليس في بلادي؛ ليس خلال
حياتي. وأعرف أنني قد أعود سجيناً ذات يوم لا لأني أسعى إلى ذلك
بل لأني مسلوب الحق بألا أسجن إلا بحكم القانون وتحديد القانون
الشرعي الذي يشرّعه شعبي وشعوب العالم.

ثبتوني على السلم بأربع أريطة رفيعة متينة. فقدان الحركة
على السلم لا يهم لأن الأمر نسبي. هذا تعلمناه من نظرية الثورة،
فإن كنت عاجزاً عن الحركة على السلم فأنا أتحرك مع المجموعة
الشمسية... مع الأرض... مع أرض الوطن، يا محلاً الحركة مع
أرض الوطن ولو كنت مربوطاً ومعلقاً بالمقلوب كذبيحة تُسلخ، فهذا
لا يهم، إنه أمر نسبي: من يمكنه بتلك اللحظة أن يحسم من منا
مقلوباً رأساً على عقب أو عقياً على رأس. فأنا من وضعي أراهم

مقلوبين رأسا على عقب (هكذا هو الاصطلاح)، كما أنا من زاوية نظرهم مقلوب عقبا على رأس. هم يعتبرون وقوفهم سليما وصحيحا طالما هم اختاروه، وكأنني لم اختر موقفي عندما أثرت قوة بطشهم. والا ما معنى قول صديقي إبراهيم أنه يتحرش بهم ليعتقلوه ويصير مناضلا يزيد بتجربته الفذة على باقي مثقفي المقاهي التي يرتادها. ربما هم يسوقون حجة قوة الجاذبية الأرضية معيارا للوقفة الصحيحة، لكن حججا كهذه غير مأخوذ بها في ثقافتنا، إذ لم يصدر إلى الآن مرسوم عندنا يقر بالجاذبية أو بصعود الغربيين إلى سطح القمر أو بحقنا في استخدام الصحون اللاقطة أو بالاشتراك في البريد الإلكتروني؛ ونحن في حاجة لمرسوم أو تشريع لكل فعل أو ممارسة، ولو كان الأمر غير ذلك وكان العلم هو مرجعنا لبرزتهم وكنت طليقا.

تركني على السلم واعتبر أن بيدي إنهاء الحالة. هذا الأمر كان في حاجة لتفكير، لدقيقة تفكير، لكن الألم كان يعبرني بالثواني ويشغل كل مكونات جسدي، كل خلية أكانت في الدماغ أم في الجلد، في الإظفر وحتى في البول. فمن أين سأتي بخلايا تفكر لي عن حل: هل إذا بُحت له بمعلوماتي سيتركني من دون العذاب؟ الجواب عنده لكنه كذاب سيعود بما لن يفي به. هل إذا لم أخبره وصبرت قليلا سيعدم الجدوى مني ويعتقني من الألم؟ كلا، فالتعذيب هوأيته وموهبته وعمله، لا يضجر من التعذيب بل يضجر من دونه. ماذا سأكون إذا أخبرته: سأكون متخاذلا؟ وماذا لو لم أخبره: سأكون بطلا؟ هل أنا مشغول بغيري أم بنفسي؟ هل أحاول نجاة الرفاق، أم النجاة بنفسي؟ كل هذا التفكير ربما لم يكن حينها، قد يكون بعد

ذلك بزمان أو ربما الآن. حينها لم يكن لدي متسع بين الصرخة والصرخة إلا لشد شهيق يملأ صدري، يعينني على الصراخ: يُخرج مني صوتاً ليس صوتي. إنه صراخ ذاك الحيوان البدائي الذي كنته قبل أن أكون إنساناً يعرف التحكم بلسانه لنطق الحروف.

أصابني صداد رهيب وأنا على جهاز الطبيب الفيزيائي فطلبت منه إنهاء الجلسة. لم أقل له لماذا، لكنني لا أريد علاجاً له أشباه في ذاكرتي. حاول بطريقة أخرى فكانت شبيهة بذكرى أخرى. كل العلاج الفيزيائي سأرفضه لأنه يذكرني بالقرن الفائت، هو اتجاه عكس التعذيب، تصحيح لإصابات التعذيب، فلا أريده، وسأكتفي بالسيتامول شريكا لي مع ألمي نكمل بقية العمر.

بعد ساعة أو ساعتين ... هذا ترف!! الزمن هنا لا يقاس بالساعات بل بالصراخات والجلدات، إذن بعد مئة صرخة أو ألفين توحدت مع السلم والأريطة، صار سلمي وصارت أريطتي. غارت أريطتي داخل جلدي ولم تعد تُرى، وفاض جلدي المنتفخ وأحاط بخشب العوارض حتى استحال على أحد أن يعرف إن كنا تكوّننا معا أو أحداً جاء قبلاً؟ وهل تعشّقنا ولهاً أم نحن واحد لا اثنان إن افترقنا ننته كلانا مثل التوأمين الإيرانيّين لادان ولالي. عرفت وصف هذا الوضع عندما رأيت بمرات لاحقة بطرف عيني غيري بوضع مماثل.

أحد الملاحين عرف بأمر توحدي مع السلم أو كان يعرف ذلك قبل الآن، راح يضرب السلم ولا يضربني، برأ نفسه أمام ربه. لم أميّز تلك الضربات في البداية فالألم نفسه وصريخي نفسه. بعد قليل

عرفت هذه الملعنة من صوت الكرياج، فجلدي لا يصدر هذا الصوت، وحتى لو تمزق أو اهترأ مثلما حصل ببعض ظهري وانكشفت عظامي فليس لعظامي رنين هذا الصوت أيضا. وددت لو أرى وجهه بعدما اكتشفت «ذكاءه النافذ»، هل كان يبتسم شطارة؟ أم انفرجت أساريره رضا لأنه تبرأ من جريرتي. لكن لا يمكنني أن أراه حتى لو أزيلت طميشتي الآن لأن عيناى غرقتا في محلول خليط من الدمع والعرق والمخاط ونقيع الطميشة. فالدمع لا يسلك قناته إن كانت هي فوقه بل يسلكها المخاط إذ تصبح مجراه إلى العيون، والعرق بغير هذي الحال تحول الحواجب بينه وبين العيون، وفي هذه الحال تخزنه الحواجب وتتحول سداً مع كاوتشوك الطميشة يمتلئ بعرق كل الجسم الذي يشق طريقه من هنا بانجذاب لرغبة الكرة الأرضية.

عرفت الآن لماذا الطميشة الوطنية تُصنع من الكاوتشوك وليس من القماش كالبلدان المجاورة، فهذه لا تمتص العرق ولونها أسود مسود، لا ينفذ منها ضوء ولا هواء ولا عرق، وتهون انحلال ما يعلق عليها من قذارة وأوساخ ودماء بأي سائل، عرقا كان أم دمعا أم دما. إنها صديقة البيئة ونماشي ترشيد الاستهلاك لأنها تُصنع من الدواليب الجوانية التالفة للسيارات الحكومية (لو عرف بهذا الأمر علي سالم لأدرك تمسكنا بالجواني لما له من فوائد لا أعرفها جميعها)، فهي تُستخدم مئات المرات لأنها غير قابلة للتلف جراء هذا الاستخدام، ولا تحتاج لتعقيم: فاتهم أن يعقموها أو يستخدموها مرة واحدة فقط حفاظا على الصحة، لكنوا أوجدوا مدرسة سريالية جديدة.

في البداية يستهين الجسد بوضعه الجديد، يعتبره طارئاً. ألهيه بين وجبة الجلد والأخرى بأنين وعويل آخرين قربي وهم يستجبرون برحمة المحقق: (لبوس أيديك يا سيدي ... الله يرحم بيك يا سيدي ... وحياة أُمي يا سيدي الدخانات ما إلي). ضحكت من العبارات التي يطلقها هؤلاء ومن طريقة توسلهم المخادعة، الضحك في وضعي ليس من قلة الأدب. كان ذلك خلال الدقائق التي يغيب فيها المحقق ليذهب إلى أحدهم فتذهب معه كل فرقته التي يتزعمها، ليعود إلي بعد قليل يقودهم من دون كلام ومن دون إشارة مباشرة: عندما يسخر مني بغباء يضحكون مقهقهين جميعهم، وإذا لبطني، ينهالون عليّ بكرابيجهم ولا يتوقضون إلا إذا ابتعد. ظننته، بابتعاده وتركه التقط أنفاسي، رؤوفا بي، محاولاً أن يُظهر نفسه وفرقته أفضل من ذاك المهيب وفرقته الذين ساهروني طوال الليل في مكان آخر ويأدوات أخرى (ستحتاج طبيبتي النفسية لعشرين سنة أخرى كي تقنعني بسرد أحداث تلك الليلة). صحيح أنه قبل أن يرفع أفراد فرقته السلم ليقفوه بعد أن كان ممدوداً على الأرض أثبته بثقل جسمي، عاد إلى طفولته اليابسة وأخذ يقفز فوق ظهري لاهياً، هو لم يرد بذلك كسر عظام صدري وإلا لكان كسرها. أراد فقط أن يلهو قليلاً، أن يتشيطان من دون أن توبخه أمه؛ ومع ذلك كنت مازلت أراه أكثر رحمة من سهارى الأمس رغم الأسلوب الجديد الذي استحدثه بعدما شبحوني مقلوباً، ففى أحد مروراته عليّ انتبه إلى أن رأسي متدلّ بنفور من جسدي، ركله مجرباً فجاح بشكل راق له على ما يبدو لأنه جعله لعبته كلما جاء وذهب. وكالعادة، فما يفعله

الكابتن سيفعله كل أفراد الفريق، كلٌ بفنّية مختلفة. لم أستأ بل
شاركتهم اللعبة: أنا فريق وهم فريق، وشروط اللعبة أن ألعب أنا
برأسي وهم بأحذيتهم. وراهنّت على الفوز لأنّي لن أخسر رأسي بل
سأربح فقّدانه، فهو عالة علي الآن وزائدا على كتلتي الثابتة.

ليس هناك حكم ولا صافرة ولا توقيت ينهي اللعبة ولو من دون
فائز. يوجد جمهور يتفرّج وهو يعبرني بلا مبالاة، يشارك أحيانا في
اللعبة ويكون مع الفريق الخصم، كأنهم في تدريب وليس في لعبة
رسمية، وكان ساحة اللعب مباحة للجميع شرط ألا يكونوا من
فريقي. أحدهم ابتكر ما ظننته خروجاً على القواعد، لم أكن أعرف
كل شروط اللعبة، فلم يشأ أن يرمي عقب سيكارتته على أرض الملعب
كي لا يحرق البلاط فأطفأها بخاصرتي، لكنه كان على عجلة في
ارتكاب هذا «القول» فلم يفركها على جلدي، فقط معسها.

مرت علي لحظات من دون صراخ، لظنني أدمي يمر صوبي أنني
اخترت هذا الوضع طالما أني لا أشكو ألماً. لم أكن أصرخ لأنني حينها
أكون دخلت داخل الألم، اتحدت به، بل توحدت معه، تساوت عندي
الأحاسيس والأشياء والجسد والذكريات والأحلام، صرنا جميعاً على
مستوى واحد، لا تفاوت في الارتفاع أو اللون أو اللذة أو الزمن، لا أصرخ
لأن الصراخ والصمت باتا على سطح واحد وسماكة واحدة. أنا لا أقرر
أن أصرخ أو أنكتم، هو الصراخ يقرر ذاته، فلقد استقل عن إرادتي لأنها
انعدمت. تساوت معه. ابتلعها فصار أنا وصار هو وبات يقرر الظهور أو
الاحتجاب لوحده. صار صراخاً مطلقاً. قبل ذلك كان صوتاً يخرج
من حنجرتي يُدعى صراخي، الآن هذا الذي يملأ المكان ليس صراخي:

هو الصراخ الأصل، لم يعد هو مني. أنا صرت منه. ما أقوله ليس بلاغة. إنه معلومة. اكتشاف. وذات يوم، عندما تصلنا الحادثة سأسجل براءة اكتشافه باسمي. كل الأصوات التي خرجت ممن كان في وضعي، كانت ذات الصوت، لا يمكن لأحد أن تعرف ذلك الصراخ إن كان لابنها حتى لو رآته يخرج من حنجرتة. بعد أيام صرت أميز عن بعد، بحسب الصراخ، الوضع الذي فيه صاحبه، وهذه ليست براءة مني، فتلك المعرفة لا تحتاج براءة.

احتجت للتبويل ككل الثدييات. أنكروا علي حاجتي تلك، أمروني بحل مشكلتي من موقعي ووضعني الذي صار طبيعيا منذ ساعات. لم يكن للمثانة القوة الكافية لتخرج سائلها بعكس الجاذبية الأرضية، لكنها فعلت ذلك إرضاء لعلماء البيولوجيا الذين يقولون بالاصطفاء. فعلتُ شيئا قليلا، لم أعرف ما هو عندما لاحظته حين ذهبت رغما عني إلى الحمام ليلا، لم يكن بولا!! ربما يكون ذاكرتي وقد تحولت سائلا، أو أنه عصارة أحلامي أو عصارة كرامتي؛ لا مجال ولا نفع من معرفة ذلك الآن. أحمد الله أن المأساة لم تصل لأن تغط علي ذبابة، وإلا كيف كنت سأهشها. لكن من أين تأتي الذبابة إلى هنا؟ طواعية لن تأتي، وقسرا ستنتحر، ولن تقبل الذل كالإنسان.

هم يزدادون قسوة وأنا أزداد ألما ووجعا. ليست لعبة عض الأصابع وإن كانت تشبهها. فهم يعضون أصابع يدي وأنا أعض أصابع يدي الأخرى لأخفف عن أختها ألما. كانوا ينهالون عليّ عندما يشكون أنني أكذب، وينعتوني بالكاذب وكان بيننا ميثاق صدق. حقيقة، أنا لا أذكر مثل هذا الميثاق!! وهذا لا علاقة له بالذاكرة بل بكل ثقافتنا

الكذّابة في جذريها السلطوي والمعارض التي أنتجت لنا تاريخا كذابا وأدبا كذابا وسياسة كذابة. ومع ذلك أقرّيت من حينها بوجود ميثاق صدق يلزمني تجاه الآخرين ألا أكذب على أحد ولا على مؤسسة. وفي المقابل لا أشرط التزام الآخرين بهذا الميثاق، فكلُّ عليه بنفسه ومسؤول عنها. ولو أعيدت الكرة ثانية لن أكذب عليهم ولا على غيرهم. لكنني في المقابل سمحت لنفسني أن أفوّت الفرصة على الجميع وأصرّح قولاً أو كتابة بكل آرائي وكل سلوكي بشكل مسبق بحيث لا يبقى عندي أسرار، فريما يكون هؤلاء على حق وقد تكبدت كل تلك العذابات لأنني كنت كاذبا بما أقول ومخفيا ما أفعل.

علّمت فيما مضى أن حبل الكذب قصير، فلم أهتم لطول ذاك الحبل، ولم أعرف قبل الآن أن حبل الكذب يُصنع من الفولاذ المجدول وأنه يؤلم جدا، قصيرا كان أم طويلا، فطوله لا معنى له. وعُلمت أن الله يعاقب الكذابين بالنار فاستهنت بالأمر إما لأنني لم أصدق أصل الحكاية وإما لأنني تعشّمت برحمة الله وغفرانه. وعندما كانت تشكوني أمي لأبي على كذبي، كان يقرّعني ويحرمني المصروف. لم يقل لي أحد منكم أن من يكذب سيقع بين أيدي لا تعرف الرحمة، لكنّ صدقتُ وأحجمتُ عن أصغر كذبة طوال حياتي. تنصحني طبيبتي النفسية بأن أجاهر بكل ما أعرفه لكي أشفى وخاصة قصة السلم، لأن في إخفائها ممارسة كذب آخر. لهذا صرت كل مساء أجلس على الرصيف وأبوح بكل مواقف وكل ما فعلته طوال اليوم والليلة السابقة. وأفكر الآن بعد العراق أن أتلو ذلك باللغة الإنكليزية أيضا.

هل يمكن أن نتبادل الأدوار يوما؟ نعم بالتأكيد، فثقافتنا، أنا

وهم، هي هي، في ذلك الوقت، أنا أدعي أنني أضحي بجسدي وكرامتي ومستقبلي وعواطف أُمي في وجودي في هذا المكان، وهم يدعون الدفاع عن الوطن والسيادة ومصالح الشعب بما فيها مصالحهم عبر وضعي على السلم. هم يعتبرون أنني مغرّر من الإمبريالية أو عميل لها، وأنا أرد لهم تهمة العمالة وأن الإمبريالية أضلتّ رشدهم. كلانا يعادي الإمبريالية وهي تحبنا على ما نحن فيه. هم يحللون أي شيء بادعاء حماية الوطن، وأنا أحلل ذلك؛ هم يعتبرون أنفسهم يعبرون عن مصالح الشعب، وأنا كذلك، والسلم يحترق بيننا ...، لكنه يدين بالولاء لهم لأنهم صانعوه ولم أكن قادرا على صناعة أو امتلاكه مثلهم. هم الآن رفعوا السلم إلى السقيفة، وأنا مستعد أن أعادي البيئة وأحرق كل أشجار الأرض قبل أن أصنع سلّما من شجرة.

قلت لنفسي: أخفض صوتك كي لا تسمعك أمك تصرخ أُمّا، فلم أستطع. لماذا لا تكون أُمي كأم مكسيم غوركي، لربما حينها كنت احتملتُ الألم أكثر. إذن ليس ذنبي بل ذنب أُمي... وربما ذنب غوركي لأنه اخترع أُمّا كما يريد سَتالين وليس أُمّا كالأمهات التي قهرهن سَتالين وأثكلهن. وكيف ستسمعي أُمي وأنا بعيد عنها وضجيج نهارات دمشق يبدد كل صوت. ربما لا تكون بعيدة، لا أعرف أين أنا، فقد أكون قريبا منها أكثر مما أتوقع، وقد تكون تمرُّ قربي هائمة في شوارع دمشق تبحث عن بكرها الغائب. ربما أُمّ أخرى تسمعي وهي تبحث عن ابن لها، أو أكثر، فتظنني هو، كان عليها هي أيضا أن تكون كأم غوركي، ... فأنا لا أقوى على خفض صراخي يا أمهات.

حَمَل المسيح صليبه ولم يكن أثقل من سلّمي الذي لم أحمله، هو

احتمل لأنه يعرف أين هو ويعرف مصيره وأنا لا أعرف ذلك، كان أبوه ينجيه فوق رأسه في السماء، وأنا كانت الأرض فوق رأسي، وليس تحتها آباء ينجون أبناءهم، ربما لو كان رأسي صوب السماء لكان لي أب ينجيني ولكنك مسيحا جديدا ربما. لكن أن تكون قدماي صوب السماء، صوب الآباء، فلن أكون مسيحا، ربما أكون شيطانا. أليست الشياطين أشباها مشوهة للبشر؟ أنا كذلك الآن. لو أعرف أنني سأزيع البوابة في الليلة التالية وأخرج لألقى أحبتي لاحتملت أني وقلت للجميع: احملوا آلامكم فهي منجاتكم. لكنني لأبوين مسلمين لا يحق لي الارتداد عن دينهما.

هذا السلم وفي لأصحابه، يبخل علي أن تكون إحدى عوارضه أمام رأسي، لربما أرحته عليها أو شججته بها. مصنوع بإتقان كما صليب المسيح، ويمكنني الجزم أن صانع هذا هو صانع ذاك أو أحد أحفاده. كلاهما مصنوع من خشب متين ثقيل أجاد صانعيهما صقلهما فكانا أملتسین ناعمين يغريان بملاستهما. لو كانت عارضته أمام وجهي لعضضتها بأسناني، لكن كانوا سيفطنون للأمر ويضعون لي لجاما كالذي يوضع للكلاب كي لا تعض. أسناني التي عرفت أن تقضم وتمضغ الطعام أو الملذات لإمتاعي، تعض الآن زنودي لتخفف ألي، مرقت جلدني فهو طري على احتمالها. إنها بحاجة لشيء قاس تكسره بدل أن يكسر بعضها بعضا... رأسي الآن يثقلني، يتدلى مني كأنه زائد عني، ربما لو لم يكن موجودا الآن أو كان مربوطا، لخفف وزنا عن ضغط مرابط قدمي.

جاءني يقول: لا تكبر رأسك...، أنا لم أكبره هو كبر من

ركلاتكم. صار أكبر من أن أسيطر عليه. صار أكبر من أن يُركل. عاد رأسي لي أنا. لم يعد رأس أحد، لا أنتم ولا جماعتي، وأنا سأقرر مصيره. دخلت اللعبة بجدّ عندما شعرت أن غريمي أقل من زعيم الليلة السابقة، كان يضربني بتشفّ. قد يكون سبب ذلك أنني ألفظ الأحرف اللثوية عندما أقول أنني لا أكذب، وهو يقرأ «الكلاب المنعورة» بدل الكلاب المسعورة الواردة في المناشير، رغم إجازته الجامعية. شعرت أنه يريد أن ينتصر عليّ، وليس همّة الآن المعلومات التي أخفيها. استفزني فأنجرت إلى حالة التحدي، ودخلت الرهان: لن تنال مني أنت تحديداً، أريد سيّداً آخر سواك، أكثر ثقلاً منك، يعرف أنني إن دفعت فسادفَع ثمن حياتي وليس لإرضائك أو لفوزك ... رأسي من سيفوز بالنهاية لا حذاؤك.

كثُرَ يمرون صوبي أو يقفون قربي ليتبادلوا أحاديث لا تخص الشغل، الشغل الذي هو أنا وأمثالي. فنحن شغل هؤلاء الشغيلة. بعضهم يضربني لأكتم أنيني أو صراخي لأنه يزعجه. تحيّرني عدم لباقتهم، ألا يرون أنني لا أستطيع الانتقال بعيداً عنهم بحالتي هذه، فلماذا لا يبتعدون هم عني ويرتاحون من صوتي المزعج؟ أنا لا أعرف منهم أحداً ولا أريد أن أعرفهم، وهم لا يعرفوني ولا يسمح لهم صاحبي أن يعرفوني. جميعهم يخاطبون بعضهم بعضاً بكلمة: سيدي، فلا يعرف الذي في وضعي من سيّد من، على الأرجح لا يوجد سيّد حقيقي هنا ...، إلا أنا. أنا سيّد هذا المكان الآن. احتل منه مع سلمي ومزق ثيابي المرمية أكبر مساحة. فضاءات المكان تزدهم بصراخي، رائحة المكان هي رائحتي: رائحة جسدي البشري وإفرازاته، ولون المكان

اصطبغ بلون دمي. أنا السيد المطلق لهذا المكان الآن، إن بحت بما يروي
غليله ستنتهي اللعبة، فلم لا يخاطبوني بـ«سيدي» طالما أنا سيد
الأمر؟

صدّقت أنني السيد هنا، لعبت دوري جيدا. بدأت أخسر رأسي فبدأ
فوزي. قيل لي وصفة لهذا المصير أيام النضال: أصمد بضع ساعات أو
أكثر، سيتعبون ويأسون فتنجوا، وربما تعود إلى بيت أمك مكللا
بالغار بطلا، أو تعود مسجّى مغطى بالريحان شهيدا: هذا هو فوزك
العظيم. فاتني الرد: لا أعرف أن أصمد وحسب ... فأنا سأتألم وأذل
وأتعب ... وفي النهاية سأساوم لأنني لا أريد أن أكون بطلا ولا شهيدا،
ولو أردت ذلك لكان في غير هذا المكان القدر وبغير هذا الأداء المهين. أنا
لا أحب الإهانة والوجع فابحثوا عن غيري يهوى ذلك وينشيه. وأنتم
أيها اللاعبون هنا، ما رأيكم أن نعود قليلا في الزمن إلى الوراء فأمسح
ذنبي من تاريخي ونعود أصحابا وأحابا: ماذا ستخسرون جميعكم،
فلن يختل ميزان القوى بنقصان سجين أو نقصان مناضل.

أنا لا أذكر الآن ولا من سنين طوال، وجوههم ولا أصواتهم ولا
قاماتهم. لا أذكر منهم شيئا. وربما أصادف بعضهم كل يوم، وربما
أحدهم يسكن جاري، دون أن أعرفه. تقول طبيبتي إن الأمر طبيعي
بالنسبة إلي، فذاكرتي لا تحتفظ إلا بما تجده مهما لاستمرار
حياتي.

أنهى كل أشغاله، لم يبق غيري شغلا عنده، عاد يسألني أسئلته
الغبية. وما الفرق إن كانت غبية أو ذكية، فليست هي الموضوع بل هو

وجعي الذي وصل ذروته منذ صرخات كثيرة. حاولت الكلام فلم أستطع إلا قليله، فاللسان يحتاج للعب لينزلق بأحرفه على الأسنان والفكين، ومن أين آتیه بلعب يكفي لجملة، ولساني مشطور من صفة الأمس إلى لسانين أحدهما كبير والآخر صغير نازف. جف لعابي على سقف حنكي وصار بسماكة احتاجت مني عدة أيام بعد ذلك غسيلاً وفركا وتمطّطاً حتى زال. وأنفي سد بيباس جارج احتاج وقتاً أكثر من فمي حتى انفتح. كان على فمي وحده حينها أن يقوم بكل أفعالي: منه أجيب ومنه أصرخ ومنه أتنفس وبه أعض زنودي.

هل يعذروني الآن قراء عبد الرحمن منيف وغيره ممن كتبوا عن السجن، لأنني رميت روايته شرق المتوسط مرة أخرى بكل قوتي إلى الحائط، وبعد قليل قمت وتناولتها بهدوء، وبنفس الهدوء مزقتها بتشفي. هل يدرك البعض الآن جريمة ثقافتنا التي زينت السجون لشبان في عمر الورود حين أطلقت على السجن اسم المعتقل لتضفي عليه تميزاً حلو المنال، وجعلت من ألمه متعة سمتها ضريبة النضال، واعتبرت ذلك تضحية فأسموها ثقافة التضحية بدل ثقافة الانتحار والموت: ضحوا بأنفسكم يا شباب الأمة، ضحوا في سبيل الوطن. فالوطن الذي لا يُبنى بالمعتقلات والدماء والأرواح لا خير فيه؛ وكان الوطن غير هؤلاء الشباب وغير شبابهم. هذه الثقافة هي نفسها التي ارتبكت حين انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان بطريقة مخالفة للدراما السورية. وهي نفسها التي لا تقبل الآن انسحاب الجيش الأميركي من العراق بالحسن بل بإزالته تحت وابل رصاص الكلاشنكوف، حتى لو مات دون ذلك كل العراقيين... لربما حينها

تأتي فرصة تأميم بترول العراق للعروبيين والعودة إلى شعار: بترول العراق للعرب وليس للأميركان.

ذهب صاحبي وطالت غيبته وزادت آلامي وصرت انتظر عودته ...
عودة الفرج. عشت وجعي ثانية وثانية، لا يمكنني عيشه بالدقائق
فماذا سأفعل إذن خلال الستين ثانية. أخشى أن أدمن الألم والضرب
والعذاب: ذات مرة بعد هذا اليوم طلبت من صديق ونحن نلعب
الكوتشينة، وكان أضخم من عنتر بقليل وأقوى منه بقليل، طلبت
منه في لحظة أن يضربني إذ شعرت بحاجة للألم وللضرب. أجاب
رغبتي واستمتع عابثاً، وارتحت من حاجتي. بعد سنين طوال نُظفت
من هذا الإدمان دون مساعدة طبيبتي.

خَفَّت الحركة حولي. خَفَّ الشغل. أسمع بين صرخة وعاشرة
صوت أقدام أظنها تحمل فوقها جثة الفرج. تتجاوزني الخطوات أو
تنقطع دون وصول، يخيب ظني وأعود إلى عد الثواني: ثانية فثانية
فثانية فثانية. انقطعت الحركة حولي، عرفت أن وقت الشغل انتهى
وعرفت بعد أيام أن هذا وقت الغداء ونهاية الدوام. بقيت الشغل
الوحيد غير المنتهي، وانتهى أجلي بعودة صاحبي عندما سمعت من
يسأل عني ولمن أنا. وسأل ثانية وأين صاحبه، قالوا ذهب إلى بيته.
طبعاً هو صاحبي أي مالكي، هكذا هي القسمة في هذا المكان: أنا الآن
باستلام هذا البطل، يمنع الآخرين عني ولا يسمح لهم حتى بسؤالي
عن اسمي، أنا في حمايته الآن. انتهى الحديث وانتهى الأمل. كذّبت
الخبر وقلت: حتى لو كان صحيحاً فسيأتي الآن بديله أو وكيله، فلا

بد أنه أوكّل أحدهم بي وكل ما أسمعّه ليس إلا مسرحية مفضوحة يريدون تهويلي بها بعد أن أضنيّتهم وشققت صفوفهم، وما هي إلا لحظات حتّى يأتي هو أو وكيله ويفكّوني ... نعم يفكّوني، هذه هي الكلمة المعتمدة هنا وهي المعبرة عن واقع حالي، فأنا لست أكثر من مربوط. لست إنسانا أو حيوانا ولا صاحب اسم أو جنسية. أنا مجرد مربوط وحسب، لا تقوى كينونتي هذه غير أن أكون إما مربوطا وإما مفكوكا... طالت الصرخات ولم يأت أحد، لا هو ولا وكيله.

صرت وحيدا، وصار صوتي منفردا: صراخ سولو. ثم أعد أحتمل الآلام: ماذا أفعل أنا هنا؟ ولماذا جئت؟ الجواب: لو قال كل منا لا علاقة لي بما يجري حولي، فمن سيضحي إذن؟! هذه الإجابات الجاهزة كانت الوحيدة في ذهني ...، آه لو أستطيع لقاء أمي لبضع دقائق أشرح لها أنني لم أفارقها رغبة بذلك أو نكرانا لحنانها، بل سأقول لها: يا أمي، قادتني قالوا لي: لو كل منا استجاب لنداء أمه وكان بطلها وغزالها، فمن سيكون بطل الوطن أو مربوطه، ونحن أمة لا تقبل صغار الأبطال؟ وماذا يعني أن أضحي، ولماذا التضحية أصلا؟ يجب ألا يضحي أحد. لسنّا أضاحي. هل دوري حقا أن أحمي رفاقي؟ وكيف أحميهم؟ ولماذا أحميهم ولا أحمي نفسي؟ ... كفرتُ فاستغفرت. هل أريد أن أكون بطلا، لكن بعيون من؟ بعيون أمي؟! أصلا أنا، وكلنا، كذلك: القرد بعيون أمه غزال. فكلنا قردود ترانا أمهاتنا غزلانا، ما عدا قلة ترانا وأمهاتنا قردودا، وترى نفسها وأبنائها غزلانا.

تركني وذهب! هل استسلم وأعلن هزيمته؟ أين الحكم ليصفر نهاية المباراة؟ سأتنازل عن فوزي وأقبل بالتعادل، بل بالهزيمة ... المهم أن يصفر الحكم. لكنه الحكم واللجنة. لقد اعتبر زمن اللعب مفتوحا، واعتبر أن الملعب يبدأ عندي وينتهي حيث يكون، لا حدود له ولا خطوط. تركني، تحرقني قطرات دمي التي تتمكن من التسلسل عبر أربطتي، متجهة إلى قلبي الذي افتقر إلى دماء تكفيه نبضا. قطرات دمي هذه كانت أقصى آلامي. كانت حارقة قاتلة رغم أن غايتها الإبقاء على حياتي. كان كل من يلمس السلم من هؤلاء الموقوفين الطرايطير ذوي التهم التافهة الذين يقومون هنا بأعمال التنظيف والسخرة، ومنها جاءت تسميتهم «سخرة»، يتسبب بمرور قطرة دم عبر شراييني فأزداد صراخا وألما، هؤلاء المساكين عليهم أن ينجزوا التنظيف في أسرع وقت دون أن ينظروا إلي أو يرافوا بي أو يحكوا لأهلهم بعد خروجهم عما رأوه، وإلا لاتهموا بخيانة الوطن الكريم ... وطن الجميع.

أين صاحبي؟ فليأت وليأخذ ما يريد مقابل خلاصي. فهؤلاء الذين حولي والذين يحاولون إسكاتي ضربا ولكما لأنني أغص عليهم استراحتهم، هؤلاء لا يحق لهم فكي حتى لو اعترفت، بل لا يحق لهم سؤالي عن اسمي. هؤلاء لهم زعيم أيضا سمعته يتصل بالهاتف ويعرض أمري على أحد ما، هو سيده على ما يبدو. تعشمت خيرا وانتظرت، وطلال انتظاري وطلالت صرخاتي، من دون أن يبع صوتي، ولن يبع لأن صراخي يأتي من مكان ما وعبر شيء ما غير الحنجرة والحبال الصوتية. فقدت طاقتي على الاحتمال. فاقت آلامي حدود

بشريتي فأردت أن أقلب نفسي مع السلم لأقتل ما بقي في من جسد.
لست الوحيد الذي يقدم على ذلك، فمازن، في وقت لاحق حين كان
في وضع يشابه وضعي، ألقى بجسده من الشباك لطابق منخفض ظنا
منه أنه لطابق عالٍ. لكن هذا الارتفاع المخادع الغشاش لم يكفه إلا
لسقوط تافه كلفه عقابا على فعلته هذه مضافا لاستحقاقه
الطبيعي من التعذيب. خانني السلم فهو رغم توحيده معي بقي وفيما
لأصحابه. إنه مصنوع كي لا يقلبه المشبوح ويقتل نفسه بإرادته دون
إرادتهم.

لم يأت أحد. انتهت مقاومة جسدي. بدأ يختلج بقوة ومن دون
انتظام، صار السلم يهتز معي رغما عنه ويصدر صوتا عاليا من
احتكاكه وارتطامه بعارضة الحديد المتكئ عليها. ضاق ذرعا بي.
فأعلن صوت إنذار مثل صفارة طنجرة الضغط: يفهمون أنه إنذار
اقتراب نهايتي، فسارعوا ثانية إلى الهاتف، تحدثوا مع أكثر من سيد
لهم، أخبروهم خطورة الحال. نزل أخيرا واحد من الأسياد وقرر بعد
المعينة أن يفكوني ليس إنقاذا لحياتي بل لأن ترتيبات موتي تتطلب
منه وقتا أطول من ترتيبات فكي، فهو المناوب الآن ويريد أن يعود إلى
نومه.

رموا السلم، وأنا معه، بقوة على الأرض. إنهم يثقون بقوة وثبات
سلمهم كثقتهم بموقفهم ... وكانت صرختي الأخيرة، تلك
الصرخة التي لن أنساها يوما، أفزعتهم فقطعوا مرابطي في لمحة بصر
واندفع جسدي إلى الخلف أمتارا. هكذا شعرت، لكن الأمر كان غير

ذلك. فدمي هو الذي اندفع فيضانا في أوردتي مسرعا صوب قلبي الذي انتفض منتبجا بصوت مسموع. وكانت النشوة ... نشوة دم الحياة، نشوة إكسير الحياة، نشوة تفوق أي نشوة عرفها البشر والحيوان. في ما بعد انتهيتها ولم أنلها. انتهيتها مرارا ولم أصرح بذلك لأحد. الآن أشعر أنني لا أشتيها بل أتقزز منها. لكنني من يومها أحببت جسدي واحترمته واعترفت بحقه أن أكونه ولن يكون زائدا عليّ.

عندما يكون الفعل السياسي ضمن المستوى الأمني فقط يكون السجن ميدانه وليس البرلمان. والثقافة السياسية السورية التي نبذت الليبرالية وبرلمانها، أحالت الفعل السياسي إلى صراع أمني عنفي. وصار النصر الأمني هو الغاية: طرف ينتصر بملء السجون وآخر ينتصر بعجز الأول عن فوزه ذاك. فالسرية التنظيمية تبرر العنف الأمني، وهذا بدوره يؤيد سرية الكلام وليس التنظيم فحسب. هي حلقة واحدة تربطها ثقافة سياسية استبدادية تأخذ بحكم القوة وليس بحكم العقل والبشر. وتحت أقدام هذه الثقافة أضحنا أنا وغيري وكلنا. فالخلاص من السجون طريقه ثقافة التسامح، ثقافة اللاعنف. ويتجلى ذلك في الموقف البين من مقابر صدام الجماعية التي لم تستطع ثقافتنا تلك اعتبارها أكثر من حادث معيب في تاريخ الأمة المشرف. وأظننا لم نصل بعد، ولم نهتد إلى الطريق.

تعالوا نحطم ونكسر ذاك السلم وسأساعدكم في ذلك حتى لو حولتموه إلى وقيد لتشووا عليه الإمبريالية والصهيونية والعولمة

أيضا. ويمكنكم أن تشبوا على ناره غزالا برياً، فلن أقاسمكم الوجبة
لأنني لا أكل من شواء وقيدته بقايا من دمي وعريقي وعصارتني.
تعالوا نتوب جميعاً عن أفعال ليست إنسانية، بل هي تحت الشرط
البيولوجي للثدييات.

3 تموز 2003

المحبوس

من فَقَدَ عزيزا يعرف وجع لحظة الفقد: يرفض تصديق الواقعة، يشك بصحوه، يفقد مهارات النطق والتفكير. طوفان وجعه يسوّي عنده بين كل الأشياء والأسماء: الاحترام والمهانة، العذاب والرضى، الحياة والموت: لا يموت لحظتها لأنه لم يعتد الموت قبلا ولم يعرفه جسده. يهيم بلا أسئلة ولا أجوبة، يهذي من دون اضطراب ولا حمى. لا يشعر إلا بروحه الموجوعة. تضيق الدنيا وتُطبق على روحه الصغيرة.

هو، دفعني لأنزل على الدرج الأصفر الضيق مكبل اليدين خلف ظهري بحديد صقيل مصنوع في إسبانيا، يكتبونه قيادا ونسميه في بلادى كلبشة. لا أعرف من أين جئنا بهذه التسمية ولا يهمني ذلك، فأنا أكره الحديد طوال عمري، أفضل الخشب عليه. كانت درجات الدرج صفراء وجدرانه صفراء ورائحته صفراء تنبعث من أسفل، شعرت بها تقذفني درجتين للخلف، للأعلى. دفعني من ظهري أمرني بالتقدم، للأسفل. حاولت الإطاعة والنزول بضعة درجات وإذ بكتلة رائحة صفراء أخرى تدفعني ثانية، تراجعت ملتفتا إليه لا أسأله معنى الحال ولا أسأله الرحمة بحالي، بل لأطمئن إن كان سينزل معي إلى قلب تلك الرائحة التي لم أشك للحظة أنها رائحة موت عفن موبوء بكل القذارات، إنها رائحة موت ملوث ليس لها من رائحة الموت الرياني قرابة.

الساعات التي سبقت نزول الدرج كانت وقتا ملتبسا قضيتها في الطريق من اللاذقية إلى دمشق مكبلا بالكلبشة الإسبانية راكبا سيارة فرنسية يقتادوني مسلحون عرب. لا أذكر من تلك الرحلة أي شيء: لا الأحاديث التي دارت بين هؤلاء المسلحين ولا الأغاني التي استمعوا إليها، ولا إن كانوا أطعموني أو سقوني ولا إن كانوا سألوني أي سؤال. كل ما أعرفه أنها كانت ليلة تموزية، ولا أعرف إن كانت حارة أم رطبة. كان ذهني مشغولا طوال الوقت يطاممني: طالما هؤلاء المسلحين لا يعرفون سببا لاعتقالي فربما لم يُكتشف سري، وليس ما أنا فيه غير لعبة قدر ليس فيها للجدية والأذى مطرح. وكنت أتحين فرصة سينمائية تمكنني من الهرب لمتابعة النضال.

هو، دفعني من جديد بقسوة تشبه قسوة الكلبشات التي تشد معصمي، فلم تقو ساقاي إلا هبوطا سريعا حماني من السقوط. ولجأت دوامة تلك الرائحة في لحظة ... في جزء من الثانية، فزالت عني غرابتها. وكأنني في أحد أفلام الخيال العلمي حين يدخل الإنسان إلى دوامة الزمن فتعيده إلى ماض غابر أو تنقله إلى مستقبل مجهول، حسب إرادة المخرج، أو حسب إرادة المدخل إن كان على هذا الدرج. إنها دوامة لنقلي من زمن الحيوانات إلى زمن الموات. لحظة إيلاجي هذه لن تفارق روحي ولا ذاكرتي ولا شخصيتي يوما. لحظة الفقد الأكبر... فقداني حريتي.

لم أشعر بخسرانها لأنني لم أشعر يوما بها أو بامتلاكها، لم أعرف حريتي قبل هذه اللحظة، عرفتُها حين أنتزعتُ مني إلى غير رجعة، من فقدتها عرفتُها: وجعا في الروح... قلبا ثقيلا يخبط هابطا

في فراغ أفسحته له الأحشاء. ضغطتُ خواصري أضيق فراغ قفصي الصدري، أخفف من وجع خبيط قلبي، أردته أن يسكت أو يسقط أو يهجرني. تأبى، يدافع عن فقدان ما جهلته طوال «نضالي»: إنها حريتي.

لم أعرف تسمية شعوري بالفقد يومها، ولا بعد حين، بل بعد حينين أو أكثر، حين رأيته جلياً في فجر يوم صيفي على سلم طائرة تصعده امرأة عايشتها دون أن أنتبه إن كانت صديقتي أو طبيبتني أو معلمتي، وربما ابنتي أو أمي. كنت أشعر بها تولد طاقتي وحماستي ولا أعرف من تكون. تخطو ببطء الفراق، ويد الفقد تشدها من أعلى السلم. تلتفت صوبي مودعة: سأشتاق إليك و... «بحبك». انوجعتُ الروح إذ عرفتُ أنها امرأتي، وليست شيئاً زائداً عني. عرفتُ ذلك من همسة. عرفتُ أنني لن أعود أنا بعد هجرانها... سأكون بلا امرأتي؛ لن أكون رجلاً. وعرفتُ أن هذا الشعور هو الفقد، فبدأت أكتب فقدي، لاعناً كل سلاله وأدراجة فلولا ذاك السلم لما استطاعت امرأتي الصعود إلى الطائرة تهجرني، ولولا ذاك الدرج لما هوت حريتي في ذاك القرار. كانت امرأتي ستهجر راجلة، يمكنني اللحاق بها وضمها، وكانت حريتي ستفلت مني في مقهى، لأجدها في فنجان قهوتي واشربها.

كنت صغيراً، حينها، لأعرف أنني من دون حريتي لست إنساناً، فلم أحافظ عليها، وفوتها. وكنت كبيراً، بعدها، لأعترف أنني من دون امرأتي لن أكون رجلاً، ففعلت عنها، وفوتها. كنت مسكيناً لأنني لم أعرف، في الوقت المناسب، أن حريتي هي أناي، وأن امرأتي هي رجولتي.

ومضوّتا، لأن ما عرفته جاء في لحظة، حين لا ينفع الإدراك في التقاطها أن تدخل في زمن الفوات، حيث لا يوجد غير الأسف أكواما تفوق القامة والأمل، لا يمكنه أن يعيد حريتي ولا امرأتي.

بإيلاجي دوامة رائحة السجن دخلت زمن السجن: لزجا، دبقا، له طعم الصديد ولون الصديد ورائحة الصديد وملمس الصديد، ولا صوت له. يملأ كل كيان السجن حتى مجاريه. متكون من تكاثف ذرات زمنية بليدة لا تحب الحياة، هو لامة أزمنة الألم والذل والمهانة المبعثرة في حياة البشر. فإن استشعرت إحداها وجود بناء، أي بناء، إسطبلا كان أم مستشفى أو مدرسة، له أبواب حديدية وإدارة سجنية، تنادي على أخواتها، فيتنادين ليملئن المكان قبل مجيء المساجين، ليصبح سجنا. كل ذرة من زمن السجن دخلت سجنا لا تخرج منه أبدا ما دام الحديد أبوابا له.

يبغض زمن السجن السجناء، يعتبر أن المكان مكانه وهم دخلاء! وكأنهم جاؤوه بإرادتهم. يعاديهم وكأنه من دونهم يمكنه أن يكون. ويبدأ صراعهما على المكان: كلما زاد عدد السجناء ضاق السجن على زمنه ليستشرس أكثر ويطبق على السجناء، ويحوّل سجنهم حبسا أكثر. زمن السجن لا يكل ولا يمل، يُنهك السجن، ينهه، يريد أن يدخله ليعوض خسران المساحة. يشعر السجين ويحس بأن زمن السجن يحاول دخوله من فمه وأذنه وشرجه وأنفه ومن كل فتحة وثقب فيه حتى من جراحه. لكن ليس في يده حيلة، ولمقاومته حدود. فإن طال الوقت يُنهكُ السجين ويرتخي، فتتشرع أبوابه واحدا بعد واحد أمام زمن السجن، فيدخله تاركا على أول مدخل يلجه بواسير

لا نجاه لسجين منها، إن طال سجنه. فسنوات السجن يمكن أن تحسب لسجين، إن نسيها أو أنكرها، من عدد بواسيره وطولها، كما من انمحاء تلافيف مخه وتسطح ثنايا ذاكرته حيث يحلو لزمن السجن أن يقضي على همّة السجين وأمله، ويصيرّه محبوساً.

لا يُشترط على البشري ليصير سجيناً أي شرط: لا جنسيته ولا جنسه، لا دينه أو طائفته أو اعتقاده، لا لونه أو عمره، لا سليماً، أو معلولاً، أو مشلولاً، أو حتى لو كان متهتك الدماغ لا يقوى على فعل إرادي كالبلع والبول والنطق والتغوط، فقط يكفيه أنه يتنفس وقلبه ينبض ولو كل يوم نبضة ...، كأشخاص صادفتهم وعاشتهم في سجن، ولمستهم فعرفت أنهم كائنات بشرية حقيقية وليسوا من جبصين.

قلت لا يُشترط تاركاً الفاعل مجهولاً لأنّي أجهله، فلا أعرف أبا ولا جدًا لسجوننا. كلنا نتبرأ من مسؤوليتها ومسؤولية إنهاؤها. عذرنا أننا أمينون على إرث آبائنا، محافظون على هويتنا، لا نخجل من آبائنا عندما نعلمهم عظمة قادتنا وأمرائنا حين يأمرّون بحبس الناس وجلدهم. فالتعذيب عندنا حلال طالما نزل على عدو، أي عدو نقرره. فنحن لم ننجز رفضنا ونبذنا للتعذيب، نحن نستنكره عندما ينزل بنا فقط. فإن كان ابن خالة لنا عذّب غيرنا ولم يعذبنا، استقبلناه في صدور بيوتنا، تشفع له قرابة الدم، الذي لا يصير ماءً، أو حال الدنيا التي نقرأها: أنه لم يكن، دائماً، في الإمكان أفضل مما كان. «ليس التعذيب من كبائرنّا، ولم يكن كذلك يوماً، نحن أبناء الشرق أو أبناء العرب أو أبناء الإسلام أو أهل التخلف. بل كثيراً

ما نحلله إن وقع على غيرنا ولو كان ذلك بأيدينا. ولا نستهنه إلا إن وقع علينا بأيدي غيرنا كما حصل في سجن أبو غريب...» «ربما لا نمجد التعذيب ولا ندعو له علانية، لكن بكل تأكيد لا ننبله ولا نعتبره فعلا حراما، ويمكننا أن نجد في خطابنا الشفهي عند كل الجهات وعلى كل المستويات عبارات وكلمات تبارك التعذيب والإساءة الجسدية للخصوم، ويسهل علينا اتهام الغير بالخصومة. وغالبا لا نهتم لأمر التعذيب كونه يقع على الأفراد وليس على الأمة، التي نرى تحققها مستقلا بشكل نهائي عن تحقق الفرد، الذي يقتصر دوره في ثقافتنا على أنه مكلف بحمل رسالة الأمة».

وحدهم السجناء، أو بعضهم، يرفضون التعذيب، لأنهم ذاقوه على أجسادهم، أو سمعته آذانهم فبكت عيونهم خوفا وذلا. هم وحدهم أدركوا أن الإنسان هو المخلوق الذي اخترع التعذيب، وهو الوحيد الذي يمارسه. وتأكدوا أنه المخلوق الأكثر احتمالا للتعذيب، أكثر من الحمار، تعينه عليه إرادة الحياة، أو الأمل فيها. وعرفوا أن التعذيب لا حاجة له باللغة، يتحقق التفاهم فيه بأصوات حيوانية تكتفي بذاتها من دون النطق أو الهجائية. يتشابه، في هذا المجال، مع الموسيقى والرقص والقبْل. يتواصل طرفاه برياط حميمي، فيشعر كل منهما بحال الآخر ما لا يستطيع غيرهما الإحساس به. فالصرخات والصيحات والنهيدات التي يطلقانها، وصوت الكرياج وصرير السلم والكرسي، وطقطقة الكلبشة وأزيز الكهرباء، وتكسر عظام الصدر وانفقاء غشاء الطبل، ورائحة الدم والعرق، هي لغة وصالهما، بها يشعر المجلود أن جلاده في لحظة قرر قتله أو إعطابه، فيلتف بمناورة اعتراف

يحمي روحه أو جسده ببوحها . أو يشعر أن جلاده سيفكّه بعد لحظة أو لحظتين، ليس كرمى له بل لانشغاله بموعد مع عشيقة قبيحة . والجلاد، أيضا، يشعر من ذاك الوصال إن كان مجلوده قارب أن يقر بما يسره، أو بحاجة لشدة أكثر وأطول.

كل سجين، وأي سجين، يبدأ من لحظة نزوله الدرج عد أيام سجنه . وكان ذلك يقرب نهاية السجن . ففي الأسابيع والأشهر الأولى يقول حصيلة سجنه بالأيام وليس بالأسابيع، متوخيا الدقة . وبعد مضي الأشهر السقيمة يتخلى عن الدقة، ويصرح عن مدة سجنه بعدد أشهر صحيح دون ذكر أنصاف أو أرباع الشهر، بل يجبرها لصالح سجنه وليس لصالح حياته . وهذا ما يفعله أيضا مع السنين التي يمضيها، فالسجين لا يعيش سجنه بل يمضيه، لأن علاقته مع سجنه علاقة زمن وتعداد، وليست علاقة تعايش . فالذي يعيش شيئا فإنه يفعل فيه، ويقاس عيشه في كل المقاييس بما أنجزه وما فعله وليس بالزمن الذي أمضاه فيه أو معه . أما السجين فلا بد أنه هو من اخترع الأعداد، بل والتعدد، عندما لاحظ تباين السجن والحياة وأنهما اثنان ولا يمكن أن يكونا واحدا . وعندما خرج من السجن وجد أن كل السنين التي أمضاها سجيناً هي صفر يوم في الحياة، فكان له اكتشاف الصفر.

لست أنا ذاك السجين الأول، لكنني كنت أولاً . فكل سجين هو سجين أول . أعدت اكتشاف السجن، مثل غيري، من جديد . لم أقبل ولم أسلم باكتشافات السابقين، ففي السجن لا يوجد معلم ولا خبير ولا صاحب طريقة، إنه يسوي بين الجميع، إلا في استثناء عرفوه

سجناء غيري كانوا من تيارات صنفت «يمينية»، فأولئك عرفوا سجنًا مسجَّنًا غير الذي عرفته وأشباهي المصنفين «يساريين»، حيث كان بين أيدينا أدوات أعانتنا على زمن السجن مثل الراديو والموقد والكتاب والدواء وزيارة الأهل، أما هم فقد فقدوا ذاكرة الحضارة من هول ما مر بهم، وعادوا إلى ما قبل اكتشاف النار فنسوا أن البشرية أنتجت طبًا وأدواته وعقاقيره، وظنوا أنفسهم أول من اكتشف جهازًا لقياس ضغط الدم حين صنعوا واحدا من عدة أمتار من خراطيم المياه وأشياء أخرى، ثبتوه إلى الحائط بقدره عجين الخبز وأنهم أول من عرف الجراحة حين سرقوا قطعة معدن صغيرة من إحدى ساحات الموت وشحذوها أياما على الجدار لتعينهم على شق خواصرهم واستئصال زوائدهم الدودية الملتهبة ... فسجانبهم لا يعترف بوجودهم فكيف سيعترف بزوائدهم الدودية. هؤلاء أخجل منهم إن ادعيت قسوة في سجن لم أعرف فيه خطرا على حياتي إلا أيام التعذيب التي يمر بها أغلب السجناء كفاتحة لسجنهم، أما هم فقد عرفوا قطعة من الجحيم حيث يموت الواحد منهم مرارا ومرارا ويُعاد مرارا ليذاق عذابا أفظع. أصمت أمام صمت هؤلاء الخائفين وأكتفي بالبوح عن فقدي وعني كسجين وليس عن السجن.

بعد سبع سنين إلا لحظات من نزولي ذاك الدرج، نزلت درجا آخر يدفعني قرار بالإفراج عني وعن عشرات من أشباهي. لم ألتفت للخلف هذه المرة، ولا أذكر أنني نظرت للأمام، أذكر فقط أن الدرج كان نزولا، وفي مخيلتي أن كل الأدراج في السجون هي نزولا حين ندخلها وحين نخرج منها، فلا أذكر أنني رأيت أحدها صعودا. لدرجة أن

مفهومي عن الامتداد السجني هو أدراج نازلة، وأنا، للآن، أتوخي في سيري أن أهوي من أعلى درج قد لا يكون نازلا.

أعادوني، هم، إلى بيتنا، تقديرا لعلاقة قريى تربط أحدهم بوالدي. قال لي الرجل: ها أنت خارج السجن! بدا لي هذا واضحا منذ دخلت تلك البناية حيث بيتنا الذي لم أعرف غيره منذ عرفت الحياة. فشرقتُ (حسب اللبنانيين) الصيحات والزغاريد مهللة بعودة «البطل»، والتمّ حولي كومة من البشر تجاوزتهم مسرعا للقاء أمي التي تنتظر قدومي منذ ثلاثة أيام، فخبّر كهذا يلتقطه أهالي السجناء من تحت الألسنة. لن أتحدث عن هذا اللقاء فأنا أضعف من إخباره مثل صديقي منصور، أو ربما نسيته، وربما لم أقل لها سوى كلمة واحدة: التوبة يا أمي لن أعود لفعلتي مرة ثانية، أقسم لك ألا أسجن بعد اليوم. فربما يتعاهد البشر من بعدي على ألا يُبعدوا شابا عن أمه سجيناً، فينتظروها لتموت وينهشوا عمره.

لم أتفقد حريتي لحظة خروجي من السجن، لربما ظننت أنهم سلموني إياها مع أوراقى وأشياي التي صادروها مني مع حريتي يوم اعتقلوني ووضعوها جميعها في مستودع الأمانات. وكانوا أميين حين أعادوا لي مفاتيحي وهويتي وكل قصاصة وكركوبة صادروها يومها. لكن هذه المفاتيح لا نفع منها بعد أن تغيرت أقفالها بعد هذي السنين، وتلك الهوية وإجازة السوق وبطاقتي الجامعية انتهت مدتها جميعها، أرقام الهواتف تغيرت، بطاقات ركوب باصات النقل العام التي كانت في محفظتي لم يعد معمولاً بها، فجميعها لا يسدّد أجرة ركوب واحدة بعد ارتفاع الأسعار. حافظوا لي على كل الأشياء

عديمة النفع وأعادوها لي جميعها... إلا حريتي بقيت عندهم، مزقوها ملايين المزق: مزقة في سجل هنا، ومزق في سجلات أخرى، مزقة بمنعي من السفر، ومزقة بمنعي من العمل، مزقة بخوفي من كل مسلح حتى شرطي المرور، ومزقة بخوفي من كل لباس موحد حتى كراسين المطاعم. لن تنفعهم مصادرة حريتي إلا أذية لي. حريتي كروحي لا تصلح لغيري، وعليهم أن يعيدوها لي ذات يوم، إذ لا يمكنني التنازل عنها، ولا يمكن أن أكون من دونها، وستبقى وزراً تثقل أرواحهم.

تلك البناية التي يسموها أهلها بنايتنا أعرفها كجسدي، أعرف كل مسطحاتها وبيروزاتها. وجدتها على حالها: لم تزد أحدا ولم تنقص أحدا إلا أنا، وربما لم أنقصها. عشت فيها كل حياتي: عرفت فيها تمردي الأول وعشقي المجنون الأول، وهي تعلمت مني أول مرة كيف يكون التمرد وكيف يكون العشق. أعرفها وأعرف كل هؤلاء الشباب والصبايا الذين استقبلوني بأحضانهم. تركتهم أطفالاً، وهم الآن متباهين أو خجلين من ذقونهم الخسنة ونهودهن النافرة. رقصت معهم جميعاً: ذكورا وإناثاً، أعرفهم أو أجهلهم. راقصت نساءً وصبايا يشعن حرية لا يعرفن قيمتها. تواصلت معهم بحركات جسدي التي ألجأ إليها، عند ذروات انفعالي، راقصاً أو هائجاً، فلم أكن قد عرفت بعد طريقة لكلام الطليق، كل كلامي كان قبل قليل كلام سجن: كلامٌ مسجونٌ. خشيت أذيتهم إن تكلمت، فاكتمت بالنظر إليهم وملاستهم أتحسس حرياتهم لأتعرف حريتي. تركتهم يتمرغون على صدري وأكتأف، تبلل دموعهم قميصي، أظنهم كانوا سيكون

حريتي الفقيدة. لم أفلح بتمثيل دور الحر. ربما فضحت عيناى هزيمتى وخسرانى، أو أن الحرية تترك على جسدى بقايا وعلامات كما المرأة، فبدأت البحث عنها بين الأجساد لتصورى أنها جسد طرى ناعم يمكن أن أستشعرها وأمسها كما امرأتى: أضمتها إلى صدرى فيتكور نهذاها يحميان أضلاعها من شدة شغفى ... أغمر وجهى فى خصلات شعرها السود مخفيا دمعتين طافرتين فرحا بها... تغمرنى بذراعيها تلفان خصرى وأنفاسها الحلوة تلف عنقى، ويزين كحل عينيها الدامعتين قميصى بلطخة يعزّ على غسلها، متمنيا بقاءها علامة لحريتى: يميزنى من يمرى ويذل على: هذا إنسان حر.

كل هذا الحشد حولى ولم أشعر بعودة روحى أو بشفائها. كان خروجى من السجن حدثا مهما جدا لا أكثر، لا يتساوى مع شعورى يوم فقدت حريتى، برغم ما قمت به من عجائب السلوك وغرائب الأمور لأستشعر حريتى: غابت ما قدّم لى من خمور، لم أصدّ نخبأ أو كأسا رُفع لى، لكن دون أن أتلمس فقيدتى أو أنتشى، بل أنى لم أستسغ كل هذه الأصناف من المشروبات، فعلى ما يبدو أنى اعتدت مذاق خمور السجن التى كان يصنعها السجناء من أى شيء، فحتى مشروب وائل، الذى كان يسميه لأكيور ناطقا اسمه بفرنساوية مقصودة، كان أطيب وأحلى وأقوى أثرا. بل سبىرتو ياسر الذى كان يسقنيه مخلوطا بعصائر لا أعرفها كان الذى رغم أنى كنت أتقزز وأكثر بعد كل رشفة، بل هى بلعة فالسبىرتو لا يمكن ارتشافه؛ وكان ياسر يجهد نفسه طوال الجلسة يقنعنى أن هذا السبىرتو «غير شكل» فهو غير ذاك السبىرتو الذى شربناه فى مرة سابقة.

كانت خمرة السجن أطيب وأثرها أقوى، لأنني كنت أشربها محاولاً التحرر من حالة الحبس آملاً مقارنة الحرية باستحضار ذكريات قديمة غائبة، أو نشوة تشعرني بطعم الفرح لحد أنني رقصت غير مرة نشوة من دون موسيقى حين لم يكن لدينا ما يصدر الموسيقى بعد. رقصت وعلى حركاتي ضبط السجناء الآخرون إيقاع صفقاتهم. كما رقصت أكثر من مرة من دون موسيقى ومن دون خمرة في بداية السجن، ككثيرين غيري، رقصنا على وقع ألم الكرابيج؛ فبنهاية كل حفلة تعذيب يضربنا عدة جلادين، يضربون كل مفكوك بعد أن يتخلص من رباطه، يضربونه على ساقيه وقدميه ويأمرونه شاتمين أن يرقص، ولا يبتغون متعة الفرجة على رقصه الأخرق بل لإعادة دورته الدموية إلى طبيعتها.

يشرب الإنسان الكحول راجياً نشوة تنقله خارج تفاصيل واقعه المادي اليومي. وأنا شربت الكحول ليل نهار خلال أيامي الأولى خارج السجن، ولم أثمل. جسمي رفض الثمالة، لا يريدني الخروج من تفاصيل حياتي الجديدة، بل أرادني أن أغوص فيها ولا أهضو عن صغيرة من صغائرها التي تكبر كل كبريات السجن، خاف علي العودة لحالي الحبسية. كنت لهوفاً لكل شيء، ولم أغفل عن شيء أو أحد، ظناً أن الآخرين هم الواقع الحقيقي وأنا النشاذ.

كان واضحاً من لحظاتي الأولى طليقاً، أنني خارج السجن! هكذا يقول العقل ومنطقه، لكن الإحساس بذلك لم يتكوّن، بل لم يبدأ. فعلت المستحيل لأشعر أنني حرّ وأن حريتي على ملمس يدي أو بين جنبتي أو على بعد قبلة كتلك التي اشتيتها عندما راحت أصابع

امراتي الراعشة تعيد رسم خطوط وجهي غير واثقة من مصداقية عينيها مما ستحفظه من صورتني بعد رحيلها، فأرادت أن تثبت انحناءات حواجبي وفمي تحت جلدها، دست تلك الأصابع الناعمة النابضة تحت شاربي تكتشف إن كنت أستر قبحا في شفتي لم تلحظه شفاتها، فباشتهائها دليل وجودها ولو لم أصلها، فيكفيني من حرיתי أن أستهيها لأتأكد من وجودها، فأعرفها وأمضي عمري شغوبا بها.

قدت سيارة لأهلي في الليلة الأولى، وحيدا، عائدا إلى السجن، فريما حرיתי ليست جسدا بل روحا نسيتهها هناك في غفلة ارتباكي ولهفتي للخروج. فيمكن أن تكون بقيت هناك هائمة تائهة تبحث عني وما إن تشعر باقترابي تطير للملاقاتي كما ابنتي ربما.

لم تكن طريق العودة للسجن قصيرة، وكذلك طريق مغادرته. فأغلب السجون ترمى بعيدا نافرة عن المدن، أبعد من مكبّ النفايات، وبعضها إن صادف ضرورة لوجوده قريبا داخل المدن يحضرون له أعمق من المجاريير حتى إن طافت يوما لا نعرف كيف نحتمي منها، بعضها يرفع الفرشات على ظهره، كون ليس لدينا أسرة كي لا نشبه البشر، وبعضنا يخترع الوسائل ليدفع بطوفان المجاريير خارج المهجع، وبعض آخر من المهندسين يحاول بناء السدود على باب المهجع، وآخرين استسلموا للأمر وقفوا يتخرجون على القذارة العائمة متندرين غير قرفين، فالسجن أقدر.

كانت السيارة بصعودها في طريق السجن تنزلق على المنعطفات، إما من افتقادي مهارة السياقة التي كنت أتباهى بها لدرجة أنني

تجرات ذات مرة في صغري وجعلتها تسير على دولابين، وربما تنزلق لعدم تقديري خطر تلك المنعطفات. وكيف لي أن أقيم للخطر أهمية في ذاك اليوم، فليس لشيء أهمية إلا أن أجد حريتي أو المحها أو أعرفها أو أشتيها فقط، لدرجة أنني بعد منتصف الليل صدمت شاخصة مرورية لا نفع منها، فلم أجد مثلها طوال سجلي. وصادف أنها قرب بيت قائد الشرطة الذي يستلزم وجوده دوريات مرورية تطوف حوله ليبقى قائدها وهو نائم. اقتادني رجال الشرطة إلى فرع المرور ليوقفوني لسبب ما لم أهتم به، ربما تخريب أملاك عامة، أو ربما لا يليق بمثلي أن يكون طليقا. اجتهدوا للعثور على سبب، وأنا مغتبط بما يجري، فكل ما جرى ويجري يثبت أنني خارج السجن، فليس من العقل أن أسجن إن كنت مسجوناً، رغم أن ذلك ممكن الحدوث خارج العقل في دائرة الجنون في بلادي. الجواب على ذلك أقل أهمية من الشيء الذي جاءوني به وأسموه بالون عندما شموا رائحة كحول تفوح مني، طلبوا مني أن أنفخه فامتثلت مبتهجا لتعاطي اختراعات حضارية جديدة علي. نفخته بمتعة لا تصدق، والمفاجأة أنهم اكتشفوا بواسطة هذا الاختراع الذي يتباهون به، لا أدري كيف، أنني ممتلئ خمرا. هللا إذ وجدوا ضالتهم فرحين كأنهم هم من اكتشفوا هذا البالون، لكنهم أغبى من اختراع بالون، وأغبى من الاستفادة من الخبرات الوطنية، وإلا لرفعوا في وجهي كريبا، بل تكفي صورته أو ذكر اسمه، لكنني اعترفت أنني غبيت كل خمور روما، وأني أستأهل تحويلي إلى محكمة الأمن الاقتصادي كأحد مخربي الاقتصاد الوطني لاقتلاعي تلك الشاخصة، ولوفروا ثمن هذه

البالونات البلهاء من العملة الصعبة مما يمكن السلطة من الإصلاح الاقتصادي والإداري وحتى السياسي. فهذا خلل في التنسيق بين الدوائر لعدم تعميم التجربة الأمنية، ذات الطابع الوطني، على كل قطاعات الدولة بما فيها المداجن والمباقر، كونها التجربة الوحيدة الناجحة والرابعة في تاريخ دولتنا. والدليل على ذلك أن كل العاملين في القطاع العام الأمني (وإن بدا أنه قطاع خاص) أثروا واغتنوا وعجبوا.

أعتقد أن شرطة المرور هي صاحبة اقتراح أولية الإصلاح الإداري الذي أخذت تنشده السلطة لاحقاً. اقترحوا ذلك بعد تجربتهم معي ليلتها حين توعدونني، من جهلهم بالخبرة الأمنية الوطنية، اعتماداً على بالونهم، بالسجن سبعة أيام. فخلجوا من قلة خبرتهم وضعف بأسهم عندما سخرت منهم وأخبرتهم أنه لم يمض سبع ساعات على خروجي من سجن لسبع سنوات لتحبسوني الآن سبعة أيام! سأمضيها على رجل واحدة... نعم أستطيع ذلك، ألم يبق صديقي حسن حوالي ثلاثين يوماً على رجليّ! إذن يمكنني أن أبقي سبعة أيام على رجل واحدة. سأقترح على حسن أن يسجل رقمه بسجل غينيس، ولا أعرف إن كان غيره أمضى أكثر من ثلاثين يوماً واقفاً بزنازة مربوط اليد بسقفها، وحتى لو وجد غيره، ومن المؤكد أنهم كثر، فعلى غينيس أو أولاده أن يدونوا في سجلهم اسم أي إنسان يُبط ساعة واحدة أو ثانية في زنازة. فالثانية هنا هي رقم قياسي، هي عصّة القبر الزائدة على الموت. وكأنه لا يكفي المُزَنَز أن يكون أسير اختراع بشري من الإسمنت والحديد صمم ليتسع له ولا يتسع لحراكه، حتى يخترع

بشريون آخرون عصّة قبر له فيربطون إحدى يديه بكلبشة في سقف الزنزانة، ويتركونه واقفا ويذهبون إلى أشغالهم كأنهم لم يبقأوا عين الإنسانية. ويبقى المُرزن هناك لوحده مع كلبشته، ليبدأ بعد قليل عد الزمن، فتمر به أجزاء الثانية كما تمر الأيام في زمن الطلقاء.

لم أُرِبط في الزنزانة ولا يمكنني أن أتخيل ماذا يفعل المُرزن المربوط طوال الساعات بين وجبة الطعام والتالية ليأتي السجناء فيفك معصمه ليتمكن من تناول الطعام وما يليه من طقوس الجلج والفسيل والتغوط، ويستمتع خلال ذلك بنصف ساعة من دون رياط. يأتي بعدها السجناء ليشنق يده، ومن دون كلام بينهما يقوم كل منهما بتنفيذ جانبه من العمل وكان بينهما اتفاق برضاها عما يقوم به: السجناء لا يشعر بالإثم فالسجين يختار يده التي سيمدها طواعية باقرا بطن الكلبشة، وكأنهما يتقاسمان مسؤولية شناعة هذا الفعل أمام التاريخ وأي شاهد آخر.

حسن لم يبدل يده طوال أيام ربطه... تطوعت يسراه أن تضحي بنفسها حماية لليمنى لتبقى سليمة، فهي التي، إن قُدر له وخرج من السجن، سترسم وتنحت وتأمين الرزق لما سيتبقى من الجسد ومن الروح، ولحنين ونجاح.

لماذا رضي حسن بهذه التضحية، هل حاول إقناع يسراه حين يخلوان ببعضهما أواخر الليل بعد أن ينام غير المربوطين ولا يبقى صاحبا في الجناح إلا المربوطين وأنينهم وصرصره كلبشاتهم. هل

بكى يده وهو يراها تبيض وتزرق وتذبل ساعة بعد ساعة. هل كان يحدثها ويحكي لها حكايات جدته أو حكايات الثوار. هل عشمها بالأمل، أم تمنى لها الموت السريع لترتاح من الألم ومن التقشّر والتعفن، أم شد أزرها: اصمدي واصبري، فإن بقي فيك عرق دم أو خيط عصب سأحملك على كتفي بقية العمر. وهل كانت يميناه تستغل نومه عندما كان يتدلى رأسه ويتكى على زنده الأيسر المخضر، فتتسلل صاعدة إلى عند أختها محاذرة ألا تلامس الجسد كي لا يصحو حسن فتقطع عليه غيبوبته. تريد أن تواسي أختها وتمسدها وتدلّك أصابعها اليابسة على قطرة دم تخالف إرادة الخالق وإرادة الجاذبية وتصعد تدفئ أطراف الأصابع وتخفف من ازرقاقها. لا أدري إن كانت تحاول أن تحشر نفسها مع أختها في الكلبشة: خذيني معك، لا أريد العيش من دونك. وأختها لا تنطق فقد هدها السقم. لا أدري إن كان يمكن للأيدي أن تخاطب بعضها، ولا يمكن لحسن أن يفيدني في هذا، فبتلك اللحظات يكون نائما ... مغمى عليه.

أي مربوط في زنزانة سيحاول أن يحمي يده بأن يبقى منتصبا على ساقيه، فهما أقوى من اليد وأثخن، وعليهما يقوم الوقوف. يمكن أن تتناوبا، ولا ينقصهما الدم... بل يفيض عنهما لطول ساعات وأيام الوقوف، فيحتقان دما ثقيلا عجز في الصعود إلى أعلى. فينتبجان وينتبجان ليتحوّلا إلى اسطوانتين من الركبة حتى الأخمص، ليتشق جلداهما وينفلق نازًا دما أسود وصديدا.

بدا لي حادث المرور وقصته مزحة، إذ نسيت مفارقات الحياة: مَبْكِيها ومُفْرَحها. التقط الشرطة الخبر لينعموا برفع سقف الرشوة

التي أخذوها من والدي الذي كان مستعداً أن يهب روحه لبقاء ابنه
عنده ليلتها. أنا لم أكن على بازار إفلاتي من تهمة البالون بين أبي
والشرطة، لكنني أظنهم كانوا يحتاجون للمال ليشاركوا الشعب
السوري فرحته بعودة بعض من ادعوا تمثيله والدفاع عن مصلحته
التي يجهلها، لكنهم لن يصرفوا من ماله الخاص لأنهم ليسوا
مسؤولين عن حبسنا. وهذا صحيح، فقد راجعت في سنوات لاحقة عدة
محامين ومدافعين عن حقوق الإنسان لأهتدي إلى المسؤول عن حبسي
لأعاتبه وأطلب منه اعتذاراً عن عقوبة ليست مشروعة حتى في قانون
الطوارئ. فتبين بعد جهد البحث أن شخصاً كهذا غير موجود،
لدرجة يمكن الشك أن كل ما حدث لنا هو أننا ضللنا الطريق،
كوننا صغاراً لا نعرف دروب مدننا وقرانا، فوجدنا أنفسنا داخل
سجون مرمية مصادفة في طريقنا، فاستمرنا جمعتنا والمكان، لدرجة
لم نقو على فراقه إلى أن جاء أشخاص اعتبروا أنهم ولاية أمرنا
وأمركم أعادونا إلى صواب طريق بيوتنا، وعاقبونا جرأ ضاللتنا
فحرمونا السفر والعمل والعيش الأمين إلى يوم الدين.

بانت لي أضواء سجن سيدنايا من بعيد مبنيا على ذروة تلة.
فأصحاب السجون، عادة، يبنونها بنفور وقح على التلال أو وسط
صحارى شاسعة بوقاحة لا تناسب نكرانهم مسجونينهم. تهادت السيارة
دون انتباه مني وأنا محدق بوجوم وذهول في ذاك البناء المهيب الذي
يجبس العديدين من أصدقائي. أنا أراه من الخارج: إذن أنا لست فيه،
إذن أنا خارج السجن، أو ليكن كلامي أقل إطلاقية ويقينية، أنا في
هذه اللحظة بالذات خارج هذا السجن تحديداً. توقفت السيارة

فانتبهت من ذهولي ودرت بها مسرعا من دون تفكير ولا قرار وعدت هابطا تلك التلال بسرعة جنونية، قادت السيارة نفسها أو قدتها ببقايا خبرات قديمة قاربت أن تكون غريزية. لم أجرؤ على التفكير حتى وصلت أمام البيت، حاولت أن أفهم سبب سرعة عودتي إن كانت هربا من أن يكتشفوا أمري فيظنون أنني لا أقوى على فراق السجن فيستعيدوني، أم أنني اعتدت على رؤية السجن من الداخل ولا أطيق رؤيته من الخارج فخشيت من نفسي تتوق إليه فتجرني أمضي سهرتي التي اعتدتها في المهجع رقم 9.

لم أكن وصلت إلى جواب حين لمحت صبية بين المحتفين بي عيناها تلتهبان شبقا فتوجهت إليها أتمايل رقصا مع الراقصين، غير مهتم بالوافدين الجدد وهم يأخذوني بأحضانهم ويسألوني لا أعرف ماذا ولا عن ماذا؟ ولا أدري إن كنت أجبتهم وقد لا أكون فعلت، حتى وصلت إلى صبيتي. أمسكت معصمها بقبضة قوية، لم تكن بحاجة لأكثر من ذلك حتى تراخت وانقادت مع خطواتي صوب الباب غير منتبه لنظرات الآخرين وإن كان تفامزوا على سلوكي الفحشي. عدت معها إلى السيارة أقودها في زوارب برزة، هذه البلدة التي ولدتُ وعشتُ حياتي فيها دون أن أعرف الانتماء لها، فلم أشعر بالحاجة للانتماء لمكان إلا في عمر متأخر، حين شعرت بحاجة إلى حي أو بلدة أو مدينة أنسب نفسي إليها. لم تبخل برزة وأهلها علي بهذا الانتماء، لكن علني لا أعرف كيف يكون الانتماء إلى المكان، فربما هو رغبتني فيه وقبول أهل المكان بي ومشاركتي لهم أياما وأعمالا: فقد صنعت مع أهل برزة الكثير من درويها والكثير من أيامها: فعند هذا المنعطف

سقطت عن الدراجة وضحك مني الناس، لم أجد ركب الدراجة يوما وخاصة الانعطاف ناحية اليمين. وبيعض هذه الأزقة كنت ألتقي أحيانا في ساعات الفجر بالمؤذنين وهم في طريقهم إلى جوامعهم، ألقى عليهم التحية ويدي لا تخرج من جيبتي قابضة على قبلة يدوية أحتمي بها من أي اعتداء أهوج لجماعات الأخوان المسلمين الذين نشطوا كثيرا في تلك الفترة في هذه الأحياء، ويرد المؤذن السلام وكلتا يديه في جيبه، فخوفه قد يكون أكبر من خوفي. لم يكن خوفنا من بعضنا أنا وهو، إذ كنا التقينا مرارا في السابق عندما كنت أحضر الصلاة في الجامع. وذاك الشارع المنار الآن بشدة كان مكانا مظلمًا قبل عشر سنين عندما كنت ألوذ به لخلّوه من الناس الذين يخافون الأمكنة المهجورة المظلمة. لكن مثلي، عندما ترضى صبية فاتنة أن ترافقه ليختبئا في العتم من عيون الأهل، لن يسأل شجاعته إن كانت حاضرة لارتياح هذا المكان ليتعرف على ملمس فخذي الأنثى: بدائهما بالركبة صاعدا نحو أعالي ذاك العالم بوجل ويطء لا يتخيله ميلان كونديرا. كانت صبيتي تلبس فستانا كأنه خيط لغامرة يدي اليسرى تستغل اليمنى المشغلة بيد فاتنتي. لم يُصنع ذاك الثوب ليستر تلك الركبة المباحة... الركب دوما مباحة فليس لها دور في الجسد إلا الانثناء، ونحن كالنا، الآن، بحاجة لكل تمدد وانفراج. قماش ذاك الثوب حيك كي لا يصمد بين الفخذين ولا أن يضمهما لمنع يدي من رحلتها، ما كان يمكنه إلا أن ينزلق محايدا بين يدي وخجلي وبين يدي والتصاق الفخذين الذي لم يطل أمام فحيح يدي، لينفرجا لغامرتها الجاهلة بما ستكتشفه من مغاور

مرصودة لا ينفع لمغادرتها ونسيانها لا افتح يا سمسّم ولا أي تعويذة
عرفها رجل منذ آدم.

أوقفت السيارة بين الملعب الذي كنت ألعب فيه ضمن فريق كرة
اليد وبين كرم الزيتون الذي دريت فيه صديقي على قيادة السيارة
ليسجل به أول حادث له، ولم يكن الأخير، حين صدم زيتونة فاقتلعها
من جذورها. لم نكن بحاجة أنا وصبيتي لكلام ولا مقدمات، فاكتمنا
بإشارة وقوف السيارة لكي أختبر أول قبلة بعد السجن، ولتختبر
رفيقتي أول قبلة لسجين، ظانّة أنه لم يلمس امرأة طوال سنيّنه السبع
السود. كيف لها أن تعرف أن ظنّها خاطئاً، هي لم تكن موجودة حين
شدني الوطر في أحد ليالي السجن الباردة أغافل السجناء وأذهب إلى
باب مهجع البنات (هكذا كنا نسميها بما فيهنّ الأمهات) وأنادي
صبيتي التي لا تعرف من شكلي إلا ما تسمح به الشقوق الصغيرة
لأبواب الحديد التي أتاحت لي أن أرى أنّها هيفاء القوام.

كنت أمضيت قسماً كبيراً من مدة سجنّي في مهجع متميز عن
كلّ السجون السورية، أسسه رئيس سابق لهذا الفرع الأمني. عُرف عن
هذا الشخص عشقه لهذا المكان الذي كان يمضي فيه كلّ يومه
تقريباً، لا يغادره إلا بعد منتصف الليل، وأحياناً يوصل ليله بنهاره
وهو يعمل فيه مثل يوم انتظر قدومي مكلبشاً من اللاذقية. وصلت
منتصف الليل، تركني لبعض الوقت يعبث فيّ عناصره الصغار، بعدها
نزل مع طاقمه الكامل الجاهز ليساهرنّي تعذيباً حتى ساعات الصباح
الأوّل إلى أن طلع الفجر عليه وغاب ضوئي إلى الأبد.

ومن شدة ارتباطه بهذا المكان أراد له تميزا يتميز هو به عن غيره. زينّه من الخارج بأشياء كلفتها عشرات ملايين الليرات، لدرجة أن ناظره لا يمكنه تصور أن هذا المكان يحوي أفطع كمية من الروائح الصفراء، بل ربما يظنه أوسع فسحة للحرية. طبعا لم يقصد هو التمويه أو إخفاء الرائحة، إذ كانت ضخامة كميتها مادة مباهاة وافتخار له، بل إنها مصدر سلطته وسبب نجاحه. أنشأ حديقة كبيرة ومتنوعة، زرع فيها نباتات وأشياء غريبة، وبنى شلالات وبحيرات وقناطر وأقواس وقفصا للطيور كبيرا جدا يتسع لأربع رجال على الأقل يمثلون مسرحية إيمائية، ملأه بطيور ساذجة وأخرى جارحة. وأراد بعد هذا، أو لهذا، أن يصنع قفصا جميلا مدلا للسجناء وضع فيه عددا ممن لا يمكن أن يفكروا في الهرب لإدراكهم أن ثمن هروبهم سيكون السجن والتنكيل بأسرهم وعوائلهم. أعطاهم الكثير من الامتيازات، التي لم يكن يحلم فيها كل السجناء السوريين في ذاك الوقت، ليكونوا مصدر مباهاة له مثل طيوره وأزهاره وشلالاته وسياراته. بعده صار هذا المهجع لسجناء مدعومين لهم أقارب نافذين في السلطة أو في المجتمع، وصار بعض السجناء، مثلي، يرغبون الإقامة فيه بسبب تلك الامتيازات مثل إمكانية الخروج لساعات طويلة إلى باحة السجن المشمسة، وتوفير الراديو والماء الساخن والكتب والصحف.

مكنني وضع هذا المهجع من التواصل السري مع مهجع البنات الملاصق. وأتاحت لنا شقوق الأبواب تبادل بعض الهمس وتبرير بعض قصاصات الورق، وكنت أحيانا أرمي لهن أزهارا وكتبا وأشياء صغيرة نستعين بها على السجن. كنت بحاجة لبراعة لاعب كرة سلة كي

أتمكن من رمي هذه الأشياء عبر نافذة مرتفعة مشبوكة بحديد خشن يسمح بمرور مثل هذه الأشياء برمية واحدة أو أكثر. وما كان يسيء أي منهن أن تقع باقة ياسمين على رأسها لا تكون لها بل لزميلتها لتقدمها لابنها أو ابنتها في الزيارة. كان يرضيني ما أقوم به وأفرح عندما أكافئ بقصاصة منهن: (... ذلك الكتاب الذي هوى في حرجي مباشرة في لحظة كنت فيها عطشى لقصيدة ولوجه جديد استقرأ خلف تضاريس ملامحه وأحرفه صديقا جديدا، إنسانا يقدر ما الذي تعنيه لحظة فرح مباغتة، وما الذي تعنيه يد تمتد بحفنة تفاؤل وبعض من أشعة الدفء في نهارات الكآبة وغيوم قاحطة... هنا كان السر... وهنا كان الضح. ما الذي سأقوله أيضا، هل تعرف اللاذقية... وهل أنت متعلق بها... حسنا، إن اللاذقية وشوشتني في حلم أمس قائلة: «لست أنا من يزرر قميصه في زمن التعب... وها أنا أفتح حرجي البحري منتظرة أبنائي منذ الأزل كي أهدهم بموجاتي الحنونة فأغسل عن جبينهم غرابة الدهشة، وذبول قبل الأوان»).

هذه الحالة الفريدة في السجون، بل ربما هي الوحيدة، إذ تشترط إضافة لوجود مهجع سجناء مدعومين أن يكون لدى بعضهم كاريزما عالية تمكنه من إقامة علاقات وثيقة مع السجناء ليُسْغَلهم عن سجين، مثلي، ما كان يحسب نتائج أفعاله في شبابه فلم يترك نارا إلا واشعلها ظانًا أنني سأمتثل لرأي باولو كويلو وأطفئ تلك النيران في أربعينات عمري، وإذ بي أعود باحثا عن أي بصيص جمرة مخفية تحت رماد العمر أزيحه عنها وأنفخ فيها مضروما نارا جديدة أو قديمة

خامدة. وسيكون على أهلي أن يحتملوني، فهذا هو أنا لا أعرف العيش إلا لاعبا بإشعال نيران قد يكون عليهم إخمادها إن أصابهم لهيبها.

نقرت لها على الباب نقرات تميزني عن السجنانيين كي تقوم إحداهن لتأخذ رسالتي الشفوية أو المكتوبة، وكالعادة كانت تسبق الأخريات بالرد على نقراتي، قلت لها أني سأفتح الشَّرَاقَة (نافذة صغيرة في الباب لمخاطبة السجناء ومراقبتهم دون الحاجة لفتح الباب) سألتني مستفسرة كأنها لم تسمع ما قلت أو لم تصدقه، وعندما تأكدت من جدية قلبي شعرتُ الفرح يتطاير من صوتها. قاومتني الشَّرَاقَة لأنها مربوطة بشريط معدني سميك لمنع السجنانيين من فتحها حفاظا على الأمن الجنسي. ثخانة السلك أضعف من دوافعي. سارعتُ لملاقاتي مستعينة ببعض الكتب تقف عليها ليرتفع وجهها إلى مساواة الشَّرَاقَة. الكتب دوما مفيدة خاصة للسجين إذ ينظر للأشياء أولا على أنها أدوات. لم نتبادل الكلام لأنه لا يستأهل هذه المخاطرة، فَهَمَّ جسدانا على بعضهما، فدنّت بوجهها من الشَّرَاقَة لملاقاة أصابعي السجينة تلمس شفاهها المسجونة، وكأنها اللمسة الأولى. ارتعشت كلني، هي اللمسة الأولى: فلم ألمس سجينة قبلا، ولم أكن سجينا قبلا. راحت أصابعي الفاجرة، لحظتها، تتلمس باقي وجهها وتداعبه. لن تتسع الشَّرَاقَة لوجهينا ويدي، سحبت يدي مدنيا وجهي من وجهها أقبَلَه، حالت سماكة الباب اللعين دون تواصل شفاهنا مع بعضها، تحايلنا على الجهات فوصلت شفاهنا اليابسة السجينة لبعضها بتضحية من أطراف الوجه تحزها حواف الشَّرَاقَة الحادة. وكانت نشوة لم ينتقص منها يباس شفاهنا ولا برودة حديد

الباب، فقبلة السجن هي كذلك لا أكثر ولا أقل: كتب لتقف عليها صبية وشاب يخاطر بسلامته لنيلها، اتصال برؤوس الشفاه، حديد يحز الوجوه، باب حديدي تنقل سماكته حرارة التصاق صدريهما وبطنيهما ولا يتكرر من مداعبة أيديهما باحثة عن ملامسة الأعناق والأكتاف. لم أخف عليها من أنفاسي تستوطن حشوها فتحبل بي أشوب نقاءها... فأنفاسنا كلانا عقيمة.

مثل أي فعل تقبيل تبدأه اليدان ثم الشفاه ثم باقي سطوح الجسد، بدأ جسدانا يقتربان من بعضهما، يلتصقان عبر حديد الباب. فالحديد إضافة لناقليته الجيدة للحرارة فهو ناقل جيد للأحاسيس إن كان باب سجن يقف بين جسدي صبية وشاب سجينين. استغرقت كلني في القبلة واحتضان الباب، كأني رجل سجين تقبض عليه شفاه صبية ولهة فلا يرى ولا يسمع ولا ينتبه، إذ هو أسير تلك الشفاه. لو لم نكن سجناء لاحتجنا لضم بعضنا لتثبيت الشفاه من أن تنفلت من بعضها، لاحتجت لمسك كتفين عبراني ذات مرة أو لاحتاجت سجينتي أن تقبض على شعري كما فعلت امرأتي ذات مرة كي لا أفلت من بين شفاهها، أو لاحتجت أن أسندها إلى شيء ما وليكن برآدا مثلا. لو رأي أحد التصق بذاك الباب الحديدي لظن أنها طريقة تعذيب جديدة يجربونها على جسدي بعد أن استنفذوا طرقهم وأدواتهم الأخرى. لم يرني أحد، وربما رأي! كيف لي أن أنتبه وأنا أبحث عن قطرة ندى من لسانها أبلل بها يباس روحي وشفاهي. لكن زميلاتنا رأوها وعرفن أنني بالجانب الآخر من الباب رغم أنهن لا ترينني، رأوها تداعب الباب بيديها الصغيرتين وتمرغ جسدها

بصفيحه، هل ضحكنا من فعلتها أم حسدناها. هل أثرن أم قرفن. هل خجلنا من فعلتها أم هنأناها بمتعتها. هل لمحن رعشة وانقباضات على ظهرها وردفيها دلت على نشوتها. أنا لا أعرف إن كان يظهر على ظهور النساء وأردافهن رعشة حين أقبلهن، لأنني أكون من الناحية الأخرى، وهل يرتعش ظهري ومؤخرتي مثلهن. ماذا فعلت سجينتي بعد أن افترقنا، هل طمرت نفسها بالبطانية، مثلي، تغمض عينيها خوفاً على نشوتها أن يسرقها سجنها. أدخلت الحمام تتواري من نظرات زميلاتنا وأسئلتهن المخرجة. لم أهتم أنا إن كان رأيي نزلاء المنفردات الموجودة خلقي، أو شعروا بهمهمتي أو شموا رائحة شبقي؛ مالي ومالهم، لا يهمني شأنهم ولا من يكونوا أو نوعية تُهمهم، ما علاقتي إن كانوا ذكورا أم إناثا أم أطفالا، فلن أتعاطف معهم بهذه اللحظة وأفوت على روحي وجسدي متعة يحسدني عليها آلاف السجناء. أنا لا أجرح مشاعرهم، قصداً، بتقبيل سجينتي. فإن لم يكن معهم من يبادلهم قبلة فهو حظهم العاثر رماهم خلف ظهري. ولا يحق لهم أن يأخذوا علي دعوتي للمساواة الاجتماعية والإنسانية، التي كانت سبب سجنني، ويطالبوني الآن بتطبيق شعارات نقلتها عن غيري ولم أنتجها أو أفكر بها حينها ولا لاعتبر أن المساواة الحقيقية الفردية هي الأهم والأساس. ومع ذلك من الغباء أن يفهموا أن دعوتي تلك للمساواة تشتمل ملكية القبل، فأنا في عالم العشق رأسمالي جشع، لا أقبل أن يقاسموني فقراء القبل قبلي، لا طوعا ولا قسرا. أنا بهذا السجن المالك الأكبر للقبيلات، بل إنني المالك الوحيد، وما على الفقراء إلا مص أصابعهم، فلن ينالوا من شفاه سجينتي قبلة.

لم يخطر في بالي وأنا بين أحضان بابها وشفتيها ذاك السجين في المنفردة التي خلفي تماماً كيف رأيته، من سوء حظي، صباح ذات يوم مدندلاً من سقف منفردته بحبل رفيع غزله من خيطان بطانيته ليشنق نفسه، وكأنه لم يطلّ سقف بيته أو لم يجد فيه، كما في هذه المنفردات، شبكاً من قضبان حديدية يربط خيط رقبتة فيه، فاختار هذا المكان، بمحض إرادته، عبر التحايل على السلطات بأن اخترع لنفسه تهمة كاذبة لا يطالها القانون ولا تقبل بها المحاكم، وجاء إلى هنا فرحاً ليربط أنشطته التافهة وينهي حياته في مكان بوسع القبر لا أكثر. وربما لم يكن لديه لا سقف ولا بيت أصلاً، فالكثير من السوريين، وأنا أحدهم، لا يملكون بيوتا يسكنوها، لذا سيكون من الترف أن يملكوا بيوتا مجهزة بمشائق. وقد تكون هذه منّة وليست عوزاً ألا يتاح لنا بيوتا خشية أن نشنق أنفسنا فيها على مرأى الصحافة وأولادنا.

لا تعرف سجينتي بأمر ذاك المشنوق. ربما لو عرفت لما قبلتُ بوصالي خوفاً أن أكون شبحه. ويا ليتني كنت شبحاً ككاسبر، بطل أفلام الكرتون، لتمكنت من اختراق ذاك الباب ووصلت إلى أجمل نهدين رأيتهما في حياتي كلها. نعم هما كذلك وسيعرف كل شكاك ومرتاب صدق حكمي عندما نتوب في بلدي عن انتهاك حقوق بعضنا، ونكفر بالسجون والتعذيب والإهانات، حينها سيفتح ما بقي من السجون مزارات تشهد توبتنا. ما عليكم عندها إلا الذهاب لخلف ذاك الباب، ولن تخافوا أن يغلقه أحد عليكم، ستعرفونه من «رائحة الحليب المخبأ» تفوح منه. انظروا عند منتصفه سترون رسم دينك

النهدين باقيا موشوما على ذاك الحديد، شاهدا على مغامرتنا البشرية.

سجينتي لم تر ذاك المشنوق، وربما لم تر مشنوقا حيا في حياتها، ليست كلمة الحي هنا للمشنوق بل للرؤية الحية، فالمشنوق كالسجين لا يمكن أن يكون حيا، وما الفارق بينهما إلا أن الأول معلق من رقبته بحبل ما، والثاني معلق من روحه يحول سجانوه دون وصوله لحبل يشنق نفسه به، ليس رافة فيه ولا رحمة ولا خوفا من عذاب آخرة، بل لقمهره. هي لم تره لكن أنا رأيته ولم أخبرها عنه ولم أخبر أحدا. ليست رؤية المشنوق ممتعة، فلم أستمع برؤية هذا المشنوق ولا برؤية مشنوقين آخرين غيره رأيتهم غير مرة، قبل معرفة السجن، في ساحات دمشق معلقين إثباتا لوجود العدالة وقوتها عندنا. لكن هذا غير صحيح، فالعدل ينتهي دوره عند إصدار الحكم، أما طريقة تنفيذ الحكم فهي عقاب وتهديد للناس وللמارة وليس للمحكومين. وما عرض جثث المشنوقين غير تمثيل بها وإرهاب الناس الذين لا ذنب لهم سوى أن دروب أيامهم تمر من هنا.

ما الذي جاء بكن أيتها الصبايا والنساء إلى هنا لتعشن لحظات العذاب هذه، وتنتظرن مني أن أرفع صوت الراديو على أغنية فيروز «يا جبل البعيد خلفك حبايبنا» لتتذكرن أحبابكن وتبكين. كم أنتن ساذجات حين صدقتمونا أن الوطن لا يكتمل من دون سجينات تركزن أطفالهن والبحار وكنّ تابعات لأزواجهن الثوريين، أم صدقتن أنكن مسجونات لأهميتهن أو لخطر تشكلنه على السلطة. لا سيداتي فأنتن ضحايا سادية رجال سلطة لا يرون اكتمال جبروتهم ما لم يعمموا

قسوتهم على الرجال والنساء والأطفال بتساوٍ تقتضيه المساواة الاجتماعية، وأنتن ضحايا سادية رجال ثورة لا تكتمل هيئتهم الثورية من دون امرأة «ثورية» ملحقة بهم. فبعض الرجال يأتي إلى السجن جرّاء سعيهم للتسلط والسيطرة، وبعضهم يأتي نتيجة هبل. أما أنتن يا نساء بلادي كم أنتن مظلومات.

عدت والصبية والسيارة إلى البيت بعد أن نال كل منا رغبته، هازئا من أصدقائي الذين أبقوهم في السجن: ها أنا أيها الأصحاب أقود سيارة أنى شئت، وأقبلُ صبية جميلة قدر ما شئت. وأنتم كل ما تفعلونه محاولة التقاط محطة BBC أو مونتكارلو تستمعون بحسرة إلى خبر خروجنا من السجن، وربما تذيع هذه المحطات أخبار قبلاتي لتغيظكم أكثر. لماذا لم تجيئوا معي! هل كان عليكم، مثلنا، انتظار مدير السجن أن يتلو أسماءكم، وما علاقة هذا بأن تأتوا معي! هل انطلت عليكم الخدعة وصدّقتن أن تلك الأسماء التي ننادى بها في السجن هي ذات معنى. كلها ذات الدلالة، يطلقونها علينا لإحصائنا وتعدادنا فقط. هي كالوشم أو الأرقام أو الرموز. فلا يتميز واحدنا عن الآخر بها، طالما واحدنا لا يستطيع فعل ما لا يستطيعه آخر. فلماذا لم تأخذوا بالقول: ليقم صاحب الحاجة إلى حاجته، وأتيتم معي نستبيح الحياة علّنا نلاقي حرياتنا. فما لم تقوموا لحاجاتكم ستبقون كمن يقف قبالة امرأة تتلوى شفاهها اشتهاً قبله، فيتكاسل منتظرا مبادرتها، لن يحصد إلا اللعب بخصيتيه. لماذا تنظرون إلي مشككين: لا تنه عن خلق وتأتي مثله. لا هذا غير صحيح، فما فعلته مع امرأتي كان خجلا وليس كسلا، وإن تظنون أنني فزت عندما

قامت تعانقني قائلة: أنا سألفك، لتضم خصري وعيناها تقولان:
هاك أحلى شفتين أمام فمك، وخلفك الفرصة الأخيرة، ولن تصل
يديك إلى خصيتيك هذه المرة. كان أخوكم حينها مجبرا لا بطل،
نادم على كل تلك الأوقات التي أضعتها أجلس بعيدا عن تلك
الشفتين لا تفارقان ناظري، وكأنهما للنظر وليستا للقبل ... الشفاه
دوما للقبل، أتحجج لها أنني لا أستطيع تركيز نظري على عينيها
لجمالهما، فأترك نظرتي تنزلق لاهية كطفل فرح على انحدار أنفها
الوحشي لتسقط من ذروته في هاوية بهائها، فتلتقطها شفاهها
وتقدفها: كم أنت أناني لا تحسب إلا لرضاك. نويت أن أقول لها:
ليست أنانيتي إنه خجلي الذي أبقاني دون تلك الشفتين حتى تلك
القبلة التي ندمت بعدها على فوات تلك اللحظات رغم معرفتي أن
قطار العشق كقطار الحياة: ما لم تركبه فاتك. فخذوا بنصيحة
من ذاق طعم الحياة من شفتين تقطران رطبا بللتا شفثيه المتشققتين
من يباس مديد، ولا تنتظروا أن ينادى عليكم وتعيشون عذاب الانتظار
بين أجزاء الثانية كما فعل منصور. اتركوا كل كراكيب السجن
له، لا تُحضروا منه شيئا، فكل أشيائه لا نفع منها في الحياة. وإن
كانت الأبواب موصدة فتشوا عن مخارجه الخفية، فلكل سجن
مخارجه الخفية. وعند آخر عتبة أرموا ذاكرة السجن وذكرياته، ولا
تنبهروا بنور الخارج فتنسوا، أو تتناسوا، رمي ذكرياتكم، وإلا لا نفع
منكم ومن خروجكم، فستبقون أسرى هذه الذكريات القاتلة
وستبحثون، مثلي، عن رجل، أي رجل، فقط أن يكون طليقا لم يعرف
السجن يوما، يرضى أن نتبادل ذاكرتنا ليومين فقط لا أكثر. يجب

أن يكون رجلاً فلا تصلح امرأة لهذه التضحية، وإلا لسهل الأمر، فامرأتي حنونة وتحبني وستقبل راضية هذه المبادلة لأكثر من يومين أيضاً. لا أريد امرأة ففساء بلادي، وإن كن طليقات، لا يعرفن للحرية طعماً ولا فهماً. أريد رجلاً يضحى بهذين اليومين هبة إنسانية، صوم كفارة، نذراً مستحقاً، فعل خير مرمي للبحر، أستعير ذاكرته ليومين فقط أرتاح فيها من خوف معلق في القحف في أسفل مخي وأكبر منه، أريد أن أرتاح يومين من المسكنات والمهدئات والكوابيس. لن تكفيني يومان لكن سأقبل بهما، لن أطمع بأكثر، كل يوم منهما مقابل عشر سنين مضت على اغتصابهم حريتي.

سأقبل بأي رجل، لن أشرط صفات له ولا ملكات، سأقبل به وبذاكرته حتى لو كان يشرب القهوة محلاة، أو يكره التدخين ولا يحب قيادة السيارات، وحتى لو كان لا يحب النساء، بل سأقبل به وبذاكرته حتى لو كان «مثقّف سلطة». هو شرط واحد فقط يجب أن يتوفر به وهو ليس شرطي بل لا تكتمل روح المبادلة من دونه: ألا يكون سجيناً أو سجاناً، فكلاهما ستفوح منهما ومن ذاكرتهما رائحة السجن، فهذه الرائحة، التي ما زالت تخنقني للآن، تفسد أمنيّتي هذه. إن وافق رجل وأنجز المبادلة، تجب حمايته بعدها من الانتحار، فلا يمكن لإنسان احتمال زرع هذه الذاكرة فيه دفعة واحدة ولا ينتحر. حتى أنا، لا شك، سأنتحر عندما تُعاد لي هذه الذاكرة الفتاكة بعد نسيانها ليومين. لكنني راض بهذا، فيومان في الحرية تستحقان التضحية بحياة لا روح فيها.

دخلنا البيت مفلتا معصمها. جلت بنظري على كل الكؤوس

والأجساد الساكنة والمتحركة، وعلى كل العيون باحثا عن فرحتي التي لم تكتمل. لا أدري لماذا الفرحة تأتي ناقصة والخيبة تأتي كاملة. ربما لو أفرجوا عني قبل الآن لا كتملت فرحتي، لكن متى كان يمكن أن يكون هذا القبل الآن، لا أدري. ما أعرفه أنني في سنوات سجنى الأولى كنت أشعر أنه لو أفرج عني يمكنني أن أُعيد تشكيل العالم كما أشاء، واستمتع بحياتي وأنسى السجن وسجانيه. لكن في السنة أو السنتين الأخيرتين شعرت أنني بدأت أستحبس. استحبس: مفردة نتاج طول سنوات السجن، يطلقها السجناء على من يتماهى مع السجن ويبدأ يختل صوابه. بدأت أستحبس أي أنني بدأت لا أبالي بفوارق الأشياء والأمور، أعرف تلك الفوارق لكن لا أبالي أيها ينوجد وأيها لا ينوجد، فكل شيء وشيء سيّان بالنسبة لي، وكل شيّان وشيء أو شيئين سيّان أيضا، كل الثنائيات سيّان، وكل النقائض سيّان والتعاكس سيّان. هكذا، يكون السجن أخذ مني محبسه فصرت حببسه ... صرته ... صرت عدما. العدم هو تساوي الأشياء. فالعدم عدم ليس لأنه خواء بل هو امتلاء، لكن من دون فوارق. انعدام الفروق هو العدم. فليس العدم نقيض الوجود أو أنه اللاوجود، إنه وجود من دون تنوع. وأينما انفقدت الفوارق كان عدما، فالعدم لا مكان له ولا زمان ولا مآل. والسجين عدم حين يفقد مقدرة تمييز نفسه عن السجن. قد يحلو للبعض رؤية حالة الاستحباس هذه عبارة عن انهيار، انهيار المقاومة. لا هذا التوصيف هزيل لا يفي بالغرض: أن أنحبس يعني أن يتساوى عندي السجن والحياة، ومن يتساوى عنده السجن والحياة لا نضع منه.

قبل الاستحباس كنت لهوفا للإفراج، لكن حاجتي للإفراج بعده
سببها ضجري من المكان الذي أنا فيه، ضقت ذرعا به لا غير. فما يميز
الإنسان عن اللإنسان أن الأول لا يتساوى عنده السجن والحياة،
والثاني كلاهما سيان عنده.

كل سجين يعيش أحلامه، لكن ليس ما يحلمه السجين في
يقظته حلم يقظة، بل هو يقظته نفسها. حلم السجين ليس ترفا في
الزمن كحلم يقظة الطليق، بل هو فعله الأوحد في زمن السجن، أو
في مقاومته. فيقظته كلها هي حلمه بإعادة خلق عالمه خارج السجن،
لا داخله، حسب أهوائه: يرسم له خطوطه العريضة والرفيعة،
ويتركشه بألوان كلية، ويفصل كل تفاصيله، ويشكل الزمن
والآخرين، يسيّرهم حسب هواه: يجمّلهم ويقبّحهم استجابة لرغباته.
يدّعي في حلمه هذا: عندما أخرج من السجن سأفعل ...، ولن أفعل ...،
ويمضي يعيد حلمه ويكرره آلاف المرات، حسب عدد أيام سجنه أو
أكثر. وبعد طول سنين ودوام حلم واحد مكرور يخرج من السجن وإذا
به غير قادر على فعل ما نوى وحلم بفعله، وفعل ما نهى نفسه وحلم
بعدم فعله، فيخسر الحلم وإمكانية الحلم. فإذا تروكب مخيلته،
لطول السنين، على ذاك الحلم الخائب يفقد مقدرة الحلم، لأنه لم
يعد يعرف حلما غيره، ولا يستطيع حلمه بعد أن أطلق لواقعه لا يتسع
لأحلام جديدة. فهل يعود إلى سجنه يجتر حلمه المأمول من جديد
ويتلمظ نكهة مرجوة.

في سجنني، صار ذاك الحلم ملاذي الليلي، حضن امرأتي... مهدي
المهدّد... حبوب الفوستان...، إدمان لا أنام من دونه. أخفي وجهي

عن الآخرين وأعيش حلمي. لا أريدهم أن يروا تعابير وجهي تتمثل
الحلم: إن رأى أحد ابتسامتي قد يظنها بلهاء، أو يرى انقباضا على
وجهي فيظنني مسكون بشيطان أو عفريت. بقيتُ حالي هكذا حتى
استحبست، فلم أعد أحتاج حلمي للنوم، إما لأن أحداث يومي تشابهت
وفقرت، فلم تعد تستطيع إغناء حلمي فبات يتكرر ويتكرر حتى
سئمته. أو أن خيالي نضب وتبلد وتساوى مع الحبس. ويمكن أن
الاستحباس جعل تفاصيل حلمي تافهة، وسوى بين كل
السيناريوهات ففقدتُ جمالية التنوع والتعدد. وقد يكون العكس، فأول
السجن تجلب الأحلام موادها من بقايا ذاكرة الحياة، ومع طول أمد
السجن وحلول الاستحباس تغور ذكريات الحياة لتطفو فوقها
ذكريات السجن ذات اللون الواحد والطعم الواحد والأثر الواحد، ولا
يبقى للسجين من عناصر الحياة لحلمه شيئا، أو تكون عناصر الحلم
الخارجية تغيرت وتبدلت أو التفت، فالصبي الذي حلم أبوه السجين في
تنشئته كبر وما عاد يحتاج أباه العائد بعجز يجعله أحوج هو لرعاية
ذاك الصبي الذي صار شابا أن له الزواج ... والسجن. وفتاة أحلامه
تكون أنجبت بزواجها من غيره الذي قد يكون صديقه أو رفيقه. وزملاء
دراسته صاروا أساتذته بعد أن نالوا شهادات فاسدة. وأمه الذي أراد
تقبيل يدها طالبا صفحها عن إثم فراقها، تكون ماتت. وأبوه، الذي
حلم أن يعود له ابنه بفوز يتباهى به، خرّف الآن وزادت رغبة أشقائه في
عودته من السجن ليرموا والدهم في وجهه: خذه جاء دورك للعناية به
فنحن أنهيينا واجبنا ولدينا همومنا وأولادنا.

يضيق الحلم ويصغر شهرا بعد شهر، وتقل عناصره الحاضرة من

دائرة وجوده الاجتماعي، ويزداد افتقار الحلم لعناصره حتى النهاية ليبقى صاحبه فيه لوحده، فيصير هو نفسه مادة حلمه الوحيدة، فيتساوى عنده، لحظتها، السجن والحياة، وربما يفضل السجن لأن حلمه قد صغر في الزمن حتى صار لا يشمل سوى يوم واحد، فيعجز أن يقفز بحلمه خارج السجن لأن ذاك اليوم الواحد سينقسم بالضرورة بين سجن وغير سجن، فينحبس وينتهي الحالم بضيق حلمه.

ما أذكره من حلمي رغبتين لم أنسهما، ربما لكثرة تكرارهما في مخيلتي، أو لأن عناصرهما لا تزول: الأول، أن أذهب من السجن لبيتنا يوم إخلاء سبيلي سيرا في شوارع دمشق نتذكر معا: أني لم أترك فيها مداسا إلا ولعبت فيه. لكن عندما أخذني ذاك الرجل بسيارته لم أطلب منه أن يتركني وحدي، ربما تكاسلت، أو خفت أن يعيدني إلى حيث كنت ويكسر فرحتي. فرحتي التي ما زلت افتقدها لحد هذا اليوم، لكنها لا بد آتية في لحظة تالية أو يوم قادم أو بعد حين. فلا يمكنها إلا أن تأتي، وإلا كيف حلمت بها سنين طوال، وآلاف غيري حلموا بها، مثلي، لسنين أطول من سني. رغبتي الثانية، أني في نفس اليوم، وبعد لقاء أهل انتظروني باكين مكسورين طوال سنين، سأصعد إلى قاسيون وأصرخ ملء صوتي.

تذكرت قاسيون وأنا بين ضيوئهم أسايرهم بشرب كأس لا يُقدّم ولا يُؤخّر بثمانتي، أو بمراقصة إحدى الصبايا أو النساء. انسلت إلى السيارة مرة أخرى، كان هذا قبل أن أصددها في تلك الليلة، وصعدت بها إلى قاسيون. تهت قليلا من كثرة طرقاته المستحدثة، بحثت عن تلة عرفتها عندما كنت شابا صغيرا طالب في الثانوية حين صعدتها

برفقة فتاتي بسيارة مهربية (أواخر السبعينات جيء بالكثير من السيارات من لبنان «الشقيق»)، واخترنا تلة فسيحة بني عليها شيئا مثل خزان ماء أو ما شابهه. كان صباحا شتويا يلف ضبابه المكان فلا تُرى المدينة ولا المدينة ترى الجبل. قدّرت أنني هنا في مأمن من أجهزة الأمن التي عممت في تلك الأثناء منع الطلاب من الذهاب إلى السينما أو الكفّيريا أو السناك باللباس المدرسي أو أثناء الدوام المدرسي، وأذكر أنني سمعت بكلمة السناك يومها لأول مرة. لهذا حاولت أن أداري عن مراهقتي، فالمراهقة كانت، وما زالت، ممنوعة عندنا ومعيبة، إذ على المراهق أن يكون واعدا وأن يهتم بالقضية الفلسطينية ويحفظ أسماء عواصم العالم ويبتعد عن اللعب واللهو، فهذه للأطفال الذين عليهم بدورهم أن يلعبوا حصرا بالشطرنج ويلهو بالتباري بتسميع جدول الضرب. لهذا صعدت إلى قاسيون الذي كان حينها منطقة نائية مهجورة لا يرتاده من الدمشقيين إلا سكان الأحياء القريبة منه، على غير حالهم الآن بعد أن حولوه إلى مصطبة أمام الدار يرتادوها جميعهم بشكل شبه يومي. لهذا زوّغنا من الشرطة وإدارة المدرسة إلى الجبل نتسّر من عيون الناس والشرطة. ما أحلى تسّر مراهقين بالضباب حين يكون كل منهما ما زال يخجل من رؤية عريه فيلتصق بالآخر يداري خجله وجسده، يمارسان اللمس الوجل المستكشف، فأكتفي بإحساسي بنضرة حلمتيها من برد الجبل أشعر بهما من فوق ملابسها العسكرية. كانت تلك أول وآخر مرة أتستر فيها بالضباب. مارسنا عشقا طفوليا بريئا من مشاهدة أفلام الـ□يديو الذي لم نكن نعرفه بعد، ومن المحطات الفضائية الإباحية

التي لم تكن أُخترعت بعد ومن ثقافة جنسية لن يعرفوها حتى أطفالنا من المدرسة، فكان علينا اكتشاف أجسادنا، والجسد المختلف، بأنفسنا ... ببيدينا. كان على أطراف جدران ذاك البناء الذي يشبه خزان الماء الكثير من المحارم الورقية المرمية (كنا نسميها كلينكس)، لم نعرف سبب رميها هنا مع أنها مفقودة من الأسواق، وأغلبها كان يأتينا مهرّباً أيضاً من لبنان «الشقيق»، إذ أن حكومة ذاك الزمان الغابر/الحاضر استكثرت على السوريين، على لسان أحد وزرائها على شاشة التلفزيون، أن يترفوا باستخدام المحارم الورقية طالما فلسطين محتلة.

لم أتعرف إلى تلك التلة، إذ اختلف علي قاسيون بطرقاته وأبنيته ومطاعمه وروّاده. إلا أنني حظيت بتلة صغيرة معزولة ليس عليها أحد، تقي بالغرض. ترجّلت من السيارة ووقفت في مكان أستطيع منه أن أرى الشام كلها تقريبا. ما أجمل دمشق من هنا كأنها بطن امرأتي الممدود المسطح وأنا عين تتكئ على حلمتها الخوخية أنظر لامتداد بطنها الناعم دون رغبة النزول منه إلى الضخدين. تمليتها بهدوء وحسرة، غابت عن روعي الفرحة المتوقعة من هذا المكان وبهذه المناسبة. لم يستطع بريق أنوار المدينة ولا حركة السيارات المرئية في تلك الليلة، أن تلفت انتباهي وتشغلني عن البحث بنظري عن البناء الذي قضيت فيه أغلب أيام سجنني. أعرف أنه بناء في وسط الشام، أعرف الطريق إليه، لكنني لا أستطيع استبيانته من هنا. هل الشام تحجبه عني، تُنكره؟ تدّعي جهلها به وبأشبابه. أظننتني خرفت لأنسى، أم تظن أنني متسامح لن أعاتبها على إغفالي طوال

سنين قضيتها تحت أرضها وهي صامته سكوت البكر الراضية. أتراها
استمرأت الخوف مثلنا وتناستني ... ونسيّت.

اخترت مبنى اعتبرته هو الذي أبقوني في سفله (لا في قبوه)
سنواتي تلك، قد لا يكون هو لكنه صرح من صروح الوطن المتكاثرة،
وبالنسبة لي كل الصروح يمكن أن تكون سجوناً، وقد كانت كذلك
في فترة ما حين استدمى نشاط الأخوان المسلمين. حدثت في ذاك
المبنى بإصرار مفتعل، فلم أكن وقتها قادراً، ولا الآن، على الإصرار لأن
ثمنه في بلدي غالياً، لكنني امتلأت قوة أجهل إن كان مصدرها هواء
الجبيل أم إحساسي بالأمان تلك اللحظة، فأظنني لم أكن خرجت
بعد من طبقوس الأحلام حين توهمت، لحظتها، إن جاءني رجال الأمن
أرمي نفسي عن هذا الجرف فتحضنني دمشق جثة تقيم لها مقاما
قرب الأربعين. ملأت صدري بالهواء الحُر وصرخت بصوت هدار صرخة
حُرمت منها سبع سنين، فعلت خلالها الكثير إلا الصراخ الحر. نذرت
صرختي هذه من أول يوم انتزعوا مني حريتي، من أول صرخة ألم
أخرجوها من جسدي، نذرت أن آتي قاسيون وأصرخ من علاه صرخة
حرّ أملاً أن تسمعي الشام. لكنني لم ألتح حتى تنهيدة منها، ولا صدى
صوتي رجع، وربما لم تخرج صرختي مني ولم يسمعها أحد غيري.
كان دمشق غبته خوفاً علي بسرّها أن يسمعي بوابو الأسفّال
فيخطفوني ثانية، وربما عرفت أن صوتي ليس صوتاً من دون حريتي.

اشتقت لأصدقاء السجن، تمنيتهم أن يكونوا معي في ليلتي تلك،
لا ليشاركوني انتظار فرحتي المؤجلة ليوم استعادة حريتي كما
تشاركنا سنينا انتظار لحظة الإفراج، بل أردت فقط أن أكون معهم.

أظن كل واحد منهم كان لديه نفس الشعور، هذا يفسر بدء عودتنا لنلقى بعضنا بعد يوم أو يومين، لا لنحكي عمّا وجدناه خارج السجن، فجميعنا تواطأ في البداية عن تناول هذا الموضوع، لخشية كل منّا أنه الوحيد الذي شعر، بعد لقائه أهله وأشياءه وصبية جامعها أو قبلها، وإنجاز مراسيم الخروج من السجن أنه أنهى واجبه، وعليه العودة إلى أصدقائه. كأنه شعور خفي برغبة العودة للسجن من خيبة الليلة الأولى، أو لسبب آخر، تظهر بالشوق للقاء أصدقائه الذين لم يكن بالعادة يلقاهم كل يوم رغم أن يظاً بعضهم لا يبعد عن يظاه أكثر من مترين أو ثلاثة. (يظاً السجين: هو فراشه، هو بيته ومزرعته ومدرسته، هو ملعبه وملهاه، إليه يدعو أي امرأة تستحضرها ذاكرته، يُدخلها برغبتها الجامعة تحت غطاءه، يسمح لها راضيا أن تدس أصابعها تمسّد بطنه وتحشر سبابتها في سرتة، وتنزل بيدها تلامس ذراه. يظاً السجين عالمه، هنا ميكاه، هنا مصلاه، هنا...، هنا وطنه: يمكنه أن يقيم عليه أسوارا من الشراشف، أن يحدد العلاقات الدبلوماسية مع جيرانه، أن يرفع فوقه أي علم أو راية يشاء. يمكنه تقرير أن يكون اقتصاده اشتراكيا، ويعدّها إن أراد يشير إلى رئيس هيئة التخطيط عنده أن يعلن انتقال وطنه إلى اقتصاد السوق. يمكنه أن يعلّق صور من يشاء على الحيط خلفه، وإن كان محظوظا وكان يظاه/وطنه في الزاوية فله حيطان يملأهما صورا، أو يصدر مرسوما بإزالة كل صور عائلته. وللهو يخلق شعبا ويزجهم بتتال في سجون يصممها على هواه وحسب ذائقته المعمارية. هو رب اليظاً: يفرد عليه البطانية إن أراد أو يلمّها). أما الآن فلا يقوى بعضنا على مفارقة

الآخرين، ربما لإحساسه بالأمان معهم أكثر من أهله المنسيين لطول سنين فراقهم، أو، كما كنا نفسر هذا حينها أننا نمتلك لغتنا الخاصة ومزاجيتنا الخاصة وانفعالاتنا الخاصة. لكن إن فسر ذلك رغبة تلاقينا في ذاك الوقت لا يمكن أن يفسره الآن. ومن هذا فقد قرر بعضنا أن ننظم لقاءاتنا (قد تفهم كلمة ننظم بمعنى جنائي مخالف للدستور السوري، لكن استخدمتها لضرورة الإفهام)، كان تنظيم اللقاءات هذا بقصد التباعد عن بعضنا وليس بقصد خلق التزام للواصل، إذ أقرينا (أتحدث عن بعض قليل منا) حينها أننا بحاجة للاحتكاك باللقاء لتدبر شؤون حياتنا ومعيشتنا. لكن قسما كبيرا منا فشل باستبدال أصدقاء السجن البغيض بأصدقاء الحياة الهنيئة.

بعضنا مر بعد حين اعترافا، بين الهزل والجد، بتفضيله السجن على حياته الجديدة. كان يستغل ضائقة ما تمر به، مهما تفهت، ليقول أن السجن أفضل. وبعد حين ضغط الأمر المقلق علينا جميعا (ما زلت أتحدث عن بعض قليل من السجناء السابقين خاصة المهزومين كما يسمونهم من ظنوا أنفسهم صامدين)، وصار موضوعا للحديث والنقاش والجدل بيننا جميعا (أقصد الجميع). فتبين أن بعضنا (قلة) امتلك رغبة حقيقية بالعودة للسجن، والبعض أكد، من دون موارد ولا ذريعة، أن السجن أفضل. ربما كنا جميعنا كذلك، لكن كل منا كان يراه عند آخر ويخاف من هذا الإحساس على نفسه. كان شعورا مخيفا: إن مجرد المفاضلة بين الحرية والسجن يدل على مدى فداحة الجريمة التي ارتكبتها سجانو بلادي

بحق عدد من شبابها ... فطوبى لهم وليفرضوا بما صنعت أيديهم.

بعض آخر منا رفض الإقرار بذلك رغم إحساسه بامتلاك مثل هذا الشعور، عزاه للتعود وليس للخيبة. هرب من الإقرار بخيبته: إخفاقه بأن يقوم بفعل يؤكد به ذاته ويرضي حلمه ...، أن يحوز على حيز يخصه حتى لو كان صغيرا واطئا بوظافة يطأه السجني...، أن يشعر أن الحياة تحتاجه ليحتاجها ويتمسك بها. وإذ بالخائب يجد أن خياراته خارج السجن هي من طبيعتها داخله، قليلة وضحلة. فبعد أن أتاح له السجن في آخر فتراته مزيدا من الخيارات: ينام متى شاء وقد ما يريد، ويبول كيفما أراد، واقفا إن رغب أو مقرصا كما يريد أبو يسار من أبي عوسج، ويمكنه أن يأكل برغلا ومرقا أحمر طوال ساعات صحوه ... يا لخيبته.

حين يُخرج السجين من الحياة ليولج سفل السجون تبدأ الحياة والأهل والمجتمع رويدا رويدا بإلغاء مكانه وملئه ببدائل عنه. وحين يُنزع من السجن ليُزرع في الحياة من جديد يذهب بتلقائية الأبله إلى حيث كان مكانه متوهما أنه مازال على وضع يده لم يقربه أحد ولا يمكن لغيره أن يأخذه. ولا ينتبه في الأيام الأولى إلى زوال مكانه السابق، إلى أن ينفض من حوله المهنيين والمتفرجين ويذهب أهله كل إلى حال عيشه يبدأ هو بالحوضان غير مدرك أن لا مكان له بينهم، فقد اكتفوا منه طوال غيبته بصورته المعلقة في صدر البيت، وأنه سيحتاج سنوات وربما دهرا من العمل والجهد ولساعدة الآخرين ليستصلح له مكانا على قدّه بين الأمكنة البور المهملة أو التي تركها غيره حين انتقل بدوره القدري إلى السجن. لكن هيهات أن يدرك

السجين حقيقة هذا الأمر بعد أن جعلك السجن وعيه الموضوعي والمنطقي، وجعله يُلبس الأشياء والأشخاص صوراً وقيماً من خياله السجني تفارق الواقع، ويطول به السجن إلى أن ترسخ تلك الصور في ذهنه لتحل محل الحقيقة. فإن يخرج من سجنه تخذله واقعية الواقع، وتخذله ملكاته فيعتقد أن الواقع تغير وتحول إلى حال أسوأ مما تركه عليه. فيحمل على الواقع وموجوداته ومكوناته، ويطلق عليهم لعناته لاعتقاده أنهم خبيوا أمله ولم يكونوا أوفياء له. فيرى هؤلاء الخائبين أن أمهاتهم اللواتي كن يدرسن الجنة لطهارتهن ونقاوتهن وحنانهم تحولن لنساء ... لإنات: يسببن الإزعاج أحياناً، ويمقتن فلذات أكبادهن أحياناً، غيبات غالباً ومضجرات. ذلك نتاج الخيبة... وربما سببها.

وأبناء الخائبين كانوا بالنسبة لأبائهم، حين كان هؤلاء سجناء، ملائكة ... هبات من السماء، بولهم عطر، صراخهم موسيقى، بكاؤهم طرب. وبعد السجن خبيوا آبائهم...، هكذا تصور الخائبون، فأجبروهم على ضربهم وعلى الخروج للمقاهي طفشاً منهم ومن أمهاتهم اللواتي كن، ككل أحلام السجناء وذكرياتهم، أمثلة للوفاء والطهر والنقاء. وعندما أُطلقوا وجدوا تلك النساء منفرات، ووجدوهن أحياناً عاهرات يدفعن أزواجهن الخائبين لطلاق ردي أو لزننا كيدي.

كان هؤلاء الأهل أحبة ونعمة الأمل الوحيدة لأولئك الخائبين عندما كان يُسمح لهم أن يأتوا بضع مرات فقط في السنة أو في السنوات، ليزوروا خائبهم. كانوا يُصفون رتلاً أو نسقاً على شبك

حديدي خشن، أو على شبكين حديديين خشنين أو ناعمين، أو واحد خشن والثاني ناعم كما هو الحال في سجن سيدنايا الحديث الذي كان مفخرة السجون السورية أواخر ثمانينات القرن الماضي. كان جديدا وكنا فاتحيه. شق مديره شبك الزيارة الناعم شقاً على طول الشبك، يتسع لتمرير لسة بين الأهل والسجناء. نعمة، بتقييمي، أن يقدر مدير سجن في سوريا أهمية اللمسة والقبلة بين البشر، بل وأن يعتبر أن السجناء بشر، فيخرب مظهر الجدة في سجن كان حريصا أن يبقى على سجنه كل سمات حداثة السجون المعاصرة، من نظافة ورتابة تتناسب وأناقته الشخصية التي حسدته، بسببها، على زوجة تخرجه أو تدفعه للخروج بهذا المظهر.

نعمة، أن يحظى السجين بلمسة عبر شق الشبك من طليق، أنثى أو ذكر، تمدّه بحنان ولطف ورأفة لا يلقاهم عند السجناء الذين حجب السجن أرواحهم، فصاروا قساة خشنين، كل واحد يشعر بأنه أحوج من غيره لكل ما يلتقطه من حنان ورأفة من الزيارة بقيت بهما روحه في أيام القسوة القادمة الطويلة، التي لا يعرف نهاية لها، لا هو ولا سجانوه ولا إنسان. إذ هي مرهونة بمزاجية مطلقة لواحد مطلق، لا خلاص للسجين بغيرها، فكل القوانين والنواميس تخرب أمام معادلة إطلاق سراحه. فلا متغير سياسي داخلي أو خارجي، ولا متغير تاريخي أو حياتي، ولا انسحاب السجين من حزيه أو انسحاب حزيه من العمل السياسي، ولا توبته عن جرم مطالبته بحرياته وحقوقه الطبيعية، ولا إضرابه عن الطعام، ولا إسفاهه باسترحام، كل هذا لا يقدم يوما ولا يؤخر في موعد إطلاق سراحه. فهذا اليوم الموعود مكتوب على الجبين

لا تراه عيون البشر ولا عيون قارئات الفنجان... ولا توجد قارئات جباه. فإن مكنّ المبصّرون أن يروا المستقبل بخفائيه وخبائيه، تعمى عيونهم عن رؤية ذاك اليوم القدرى، كونه يوم خارج أيام الزمن الكونى، هو يوم من أيام مزاجية قادر مقتدر. فهو ليس يوما من أيام السجين يحتسب من حياته أو من تاريخه، يسجلّ له أو عليه. هو يوم من تاريخ القدرة، وليس السجين أكثر من موضوع لهذا التاريخ، أو مادة لفعل أو لفيض هذه القدرة حين تنتبج بشعور التشفى فيخرج السجين من السجن مخاضا لها، ويبقى السجن في لب السجين ليصير هويته الجديدة، يُعرف ويُعرف بها: سجين سابق. هذه السابق هي تحديد لدرجة الهوية، إذ يمكن القول، ويجوز ذلك، أن كل سوري هو سجين حالي أو سابق أو لاحق، لا يحيد عن هذا التصنيف إلا من يموت قبل نهاية عمره، وغير ذلك فهو مشكوك بأبوته. فالسوريون يعرفون بالسجن: إما سجناء أو طلقاء فليس بينهم أحرارا. إذ أن الطليق محدّد مسبقا بالسجن، فالسجن قبلهم سابقا لهم ومشكلا هويتهم جميعهم من قادتهم لعبيدهم.

بعض الأهل الزائرين يكون حبيبهم الخائب الواقف خلف الشباك، أو فقدانهم الحيلة عن فك حبسه. وبعضهم يبتسم بادعاء مفضوح أو بمحاولة مخففة أن يرفع معنويات خائبه. والصغار، منهم من يبكي غرابة المشهد والموقع، ومنهم من ينظر دهشة واستغرابا محاولا استيعاب المشهد، معتمدا على خبراته، فلا يجد لهذا المسرح شباها في ذاكرته لا مسرح العرائس، إن عرفه، ولا حتى خيال الظل. فلا الجمهور مستمتع ولا الممثل يمثل. ولا تعينه كلمات ذويه ولا

عباراتهم ولا عبراتهم أن يصدق خبريتهم أنهم سيرونه أبية. فهذا الكائن خلف الشباك غيره تلك البلاهة البلاغية التي يلقنوه إياها في المدرسة. ويختلط عليه الأمر أكثر حين لا يميز المدعو أباه عن سواء ممن يقفون في الجهة المقابلة من هذا المسرح حيث الممثلين، فالزيارات جماعية لازدحام السجن بنزلائه. فقد يروق له شكل كائن آخر، غير الذي أشاروا إليه على أنه أباه، فيبتسم لهذا ويتجاهل ذاك، لاهيا كل زيارة، في اختيار أب على هواه من بين هؤلاء الآباء المتشابهين بانكساراتهم.

مسموح أن يفوق عدد السجناء الحقيقيين عددهم في السجلات، وجريمة عظمى إن نقصوا. فإن سجت امرأة لأن زوجها أو أخاها أو أباه هرب قبل أن تطاله يد الحاكم العري، وصادف إن حملت في رحمها بيضة ملقحة، وطال سجنها بطول سنين غرية ذاك الرجل سبة سجنها، أو ربما أطول من ذلك إن شاء قدره أن يأتي يوم أجله خارج بلده ولم يتمكن من العودة ليفك حبس حرمة، ستضطر حينها أن ترعى جنينها وتلد أنثى ترضعها وتطعمها، وتترك للسجن أن يربيهما لتبلغ المولودة عشر سنين غير سجينة وغير طليقة، فلا السجن يحسبها من عداد سجلاته، ولا دائرة النفوس تقر بوجودها، فهي مجرد مولودة أو مخلوقة لا تنطبق عليها قوانين الدولة، لهذا تفاجأ ضابط كبير كان مسؤولاً عن تفقد أحوال سجيناته، رهيئات القوى الدينية، ليحضرهن لإفراج «رحيم». اختلف معه العدد فأنب مرؤوسيه على خطأ لا يعرف هو كيف كان لهم أن يحلوه: فلا يمكنهم أن يعتبروها سجينة ويدرجوها في سجلات سجنهم، لأنه لا يحق لهم هذا، ولأنها

مولودة صغيرة على السجن وعلى الزواج. فبماذا كانوا سيجيبون هيئات حقوق الإنسان الدولية عن سبب سجن هذه الطفلة (لم يكن في سوريا حينها لجان للدفاع عن حقوق الإنسان). فلا يليق أن يكون جوابهم هو نفسه حين طالبت منظمة العفو الدولية بالإفراج عن هيثم عندما اعتقل وكان حسب المقاسات الأوروبية لتلك اللجنة مازال طفلاً في الرابعة عشر من عمره. تلك حسابات أوروبية أما حسابات سجانينا وجوابهم لهذه اللجنة المتدخلة في شؤوننا الداخلية الوطنية والسيادية: أنه قد الشنتير، قادر على الزواج، وبالتالي يجوز له السجن عرفاً (سن الاعتقال غير معروف بالنسبة لي، لكن لم تسجل ولا حالة اعتقال سياسي في سوريا لشخص لم يتجاوز السنتين من العمر). وقالوا لأهله أنهم سجنوه لكي لا ينحرف ويضطرون إلى سجنه عدة سنوات. أبقوه أربع سنوات ليخرجونه بعدها ويلحقونه بالخدمة العسكرية التي صارت تجوز له إلزاماً، فيتسرح بعدها مواطناً مطيعاً صالحاً لأن يفترس السرطان دمه لاحقاً.

لن أنسى تلك الصغيرة كما نسيها القدر عشر سنين في السجن، ليتذرع بأن سجانيتها لا يجوز لهم الاقتراح على قاداتهم ورؤسائهم، المخولين البت بقرارات الاعتقال، أن يستصدروا أمراً من نائب الحاكم العربي بالاستمرار بتوقيف المولودة كما أمها، وأن دورهم ينتهي عند تنفيذ أوامر رؤسائهم والإجابة عن أسئلتهم فقط. وبهذه الحالة لم يسألهم أحد إن ولدت طفلة ما في السجن حتى يصرحوا عنها. هي الظروف حالت دون احتسابها سجيناً، لكن ليس للظروف دخل بإخراجها من السجن، فهذا أمر ليس من صلاحيات السجانين ولا

رؤسائهم حتى. فأمر الإفراج حتى عن مولودة يحتاج إلى الحاكم العري في المطلق الصلاحية.

عطفاً ذاك الضابط على تلك الطفلة وأمر لها بتشميسة يومية مع أمها في حديقة المكان. لم يطل بها الأمر إذ أفرج عن أمها ولم يفرج عنها كونها ليست سجينة، لكن سمح لأمها باصطحابها إذ أُعتبرت من أشياء أمها الشخصية. طبعاً لم يفرج عن الأم بشفاعاة الطفلة، بل عن كل النساء أشباهها، لأن قضية ذكورهن صارت نافلة بعد مضي كل هذه السنين.

أخشى على الطفلة إن اعتادت السجن على أنه الحياة الطبيعية، وشعرت بفقده تضيق ذرعاً بالحياة، ولا يمنعها من العودة إليه إلا تعلقها بأمها التي لا يمكن، مهما أحببت ابنتها، أن تقبل العودة إليه أو تسمح لابنتها بالسعي إليه.

السجن أكثر بساطة وأكثر سخافة من الحياة. لا يحترار نزله كطليقه بين أوليات تتشابه أو تتساوى، فلديه همّ واحد لا أكثر وسواه ترهات. ليس فيه محاذير الحياة ولا مخاطرها، لا يقلق السجن على أهل أو على ذاته، لا يجفل، ولا ينبهر، ولا ينقز. هذا الأمر هو الذي لم يفهمه ذاك الرجل الذي فاجأني يلكرني من كتفي، بعد أيام قليلة على خروجي من السجن، حيث كنت أقف مع عماد صامتين عند مدخل عين الكرش من جهة الأزيكية، دهشت حينها لهذا الرجل ينقر على كتفي دون أن يخاطبني باسمي، ظننته أحد معاري في القدماء ورغب أن يفاجئني، فالتفت إليه بابتسامة بشوشة، ولولا

١

تجهم وجهه لعانقته أقبل وجنتيه المشعرتين، لكنه قطع علي
استرساله واجتهادي لمعرفته حين أظهر لي أنه منزعج لأمر أجهله ولم
أفهمه عليه، لكنني لم أكن بحاجة لحضور بديهتي، الغائبة دوماً،
لأعرف أنني سبب غضبه. انتبه إلى أنني لم أعرف سبب اكفهرار وجهه
وتعابيره، وبدا عليه استغرابه وعدم تفهمه لردة فعلي التي يمكن أن
تفسر على أنها سخرية بتجاهلي لسبب غضبه، لكن ملامح وجهي
المهزومة وعيناي المحدثتان كعيون المجانين من دون رمش جعلتاه
يشرح لي أنه سائق السيارة التي تقف خلفنا أنا وعماد وأنه أمضى وقتاً
ينبها بزموره أن نفسح له الطريق، لكننا لم نهتم لزمور سيارته وبقينا
مسمرين في طريقه مما اضطره للترجل وتنبهنا حسيّاً. لم يكن
الظرف يسمح لأستبقيه وأشرح له أن كل الزمامير في دمشق وحتى
في واشنطن لا يعنيني أمرها شيئاً، هممت أن أقول له: يا سيدي أنا
خارج من السجن الآن، وقد مضى علي سنين طوال لم أسمع زمورا ولا
يعني لي أنه منبه لخطر ما، ولو سمعته هناك لكان إزعاجاً وليس
تنبيهاً. فهناك لا يوجد سيارات رغم وجود سائقين، وإن عانينا أحياناً
من ازدحام في أمكنة سيرنا، إلا أننا لم نحتج لزمامير، وربما كنا
استخدمناها لو توفرت لنا، أو كان استخدمها بعضنا بكل تأكيد
ممن شوش السجن هداهم وصعب عليه التمييز الواضح إن كانوا
يسيرون في الشارع أم في الممر أم في باحة التنفس، وتساوى عندهم في
مسيرهم إن كانوا راكبين سيارات أم أنهم مشاة. ربما كنت سأقول
له كل هذا لو أنه ابتسم لي ودعاني أركب وعماد سيارته يأخذنا
مشواراً إلى الغوطة التي لم تسنح لي الفرصة بعد لزيارتها ومعرفة

فرق النور الفنية التي شكّلت ذائقة من تبقى أو استجد على الطبقة الوسطى. إلا أنه غادرنا يؤشر بيديه ويهز رأسه بحركات يمكن أن أفسرها الآن أنها دليل استغرابه ردة فعلنا على زموره.

ليلتي الأولى التي أتحدث عنها هي كل الوقت الذي أمضيته ليلاً ونهاراً بعد خروجي من السجن قبل أن أتمكن من النوم، ربما غفوت أحياناً لحظات لكن لم أنم، بل تواصل زمني وصخبي ورجوتي. خفتُ النوم لأنني لا أدري كيف وأين وعلى ماذا سأفعل. كيف لي أن أتأكد أن أمي من سيوقظني: قم يا حبيبي قهوتك جاهزة ... وليس صوت قفل باب المهجع الضخم الذي يوقظ الميت من فنائها!! هذه الأقفال والمزاليج ليست جديدة، هي نفسها منذ اخترعت حضارة العنف سجونا. ولم تهتم العلوم والتكنولوجيا بتحسين أو تطوير حال السجين واكتفت بتمكين السجنان من السيطرة على مساجينه. قفل باب المهجع هذا لم يكن الأسوأ الذي عرفته بل متراس تلك المنفردة القبر حيث وجدت نفسي بعدما اختطفوني وأفردوني فيها كان هو أسوأ صوت يمكن للبشرية تصوره. إنه الشيء الوحيد الذي كان يمكنه أن يُغفلني عن آلام جسدي المشوه والممزق في أيامي الأولى من فقدان حريتي. ليتصور أي منكم مكانا ليس منفردة لكنه صغير بقدرها: متران للطول، ومثلهما وقليل للارتفاع، وواحد للعرض، مظلم كالعتم، قذر كالظلم، رائحة بطانياته توقظ الغائب عن الوعي، كحالي، من غيبوبته إن قاربها أنفه غير قاصد. يخاف إن فتح سجان الباب فاصطدم بقدميه، إن كان مثلي بطول هذا المكان الافتراضي، أن يجلد السجان عقاباً أو يتسلى، حسب نرجسيته، ببضع جلدات

شبه تائهة تصيب أي مكان من الجسد وكأنها كانت تعبر المكان بحال سبيلها حين اعترضها هذا الجسد، جسدي، صدفة أو قصدا أو طيشا، بزمان ليس أسعد أزمنته.

يسمع المجلود صوت صفعة الكرياج، يتابع هرولته ثانيا جسده مسبلا يديه تكادان تلامسان الأرض وكأنه يقلد قردا أو يداعبه، لا يعنيه سماع ذاك الصوت فقد اعتاد أن يسمعه طوال الوقت... يسمع بعد خطوتين أو ثلاثة صوت نفسه متأوها أو متألما أو مستجيرا... يدرك أن الجلدة كانت من نصيب جسده. فالإحساس بألم ضربة هذا الكرياج يأتي لاحقا متأخرا عن الصوت، فمن شدة الألم لا تستوعب الأعصاب البشرية مثل هذه الإشارة العصبية، إذ تراها تنتقل بأسرع من الضوء بين جلدك ودماعك، ولشدة سرعتها يعجز الدماغ عن استقبالها أول الأمر فترتد عنه إلى رأس العصب في الجلد من جديد لتطجّ عليه وتعود الكرة صوب الدماغ مرارا حتى تهدأ سرعتها، كما الطابة المجنونة.

بعض السجّانين، على خلاف غيرهم، استهواهم الجلد فصاروا يتصيدون المساجين المستفردّين بحيل يوقعونهم فيها ليجلدوهم. ليسوا طبعا بحاجة لسبب للجلد، فهذا مباح لهم طوال الوقت، خاصة إذا كان السجين في منفردة في هذا الجناح ليحلّ جلده ويباح جلده لمن رغب من الجلادين أو حاملي الكرابيج. لكنهم كانوا يرغبون أن يوقعوه بخطأ حسب تصنيفهم للخطأ والصواب، مع أن كل مستفردّ هنا خاطئ حتى ينقل لمكان أرقى. إلا أنهم على ما يبدو يفعلون ذلك إنصافا للمستفرد كي لا يشعر أنه مظلوم، إذ يتوجب عليه أن يشعر

بأنه خاطئ بالترافق مع إحساسه بألم الجلد. وربما يفعلون ذلك لاستكمال شروط التسلية، إذ تتطلب اللعبة أن يصرخ السجن على السجين شاتما موبخا... واعظا، لهذا يحتاج الأمر لخطأ ليس إلا. فمثلا، كان الواحد من هؤلاء ينادي على المستفردين المسترحضين بترتيب مختلف لنسق المراحض واصطفافها، وكان على الواحد منا أن يمسك بديهته بإحدى يديه ويبقيها حاضرة ولا ينساها في المنفردة، وباليدي الأخرى يجلي صحن الميلامين، التي تعرفتها هناك، ويغسل وجهه وقفاه من تغوط عُرْف كالأمر العرْف الذي أنهى حريته وحياته ومستقبله وصحته بجرة قلم من نائب الحاكم العرْف، وعليه أن يضبط وقته حسب الوقت غير المحدد بذهن سجانه، فقد يكون دقيقة واحدة أو نصف ساعة فهذا عائد لاعتبارات لا تعتبره، وكذلك عليه الانتباه لتذاكي السجن حين ينادي بتسلسل مخالف أو عشوائي، والنهوض الفوري رغم وهن العضلات الممزقة من التعذيب التي ما عادت تستجيب لأوامر الدماغ واستقلت عنه، والمهم ألا ينسى الصابونة وملء قصعته بالماء، كل ذلك بأن واحد. كان الأسوأ بالنسبة لي، والأفضل لغيري، أن يختار سجان من هؤلاء زنزانتي أن تكون الأولى بدور فتح الأبواب، فهو يتسلل بين المنفردات دون أن يشعر أحد به، آملا أن يضبط أحد المستفردين يتحدث بالكلام أو بالشفرة مع مستفرد آخر، ليقيم مأدبة تعذيب له يدعو إليها زملائه من شاكلته.

ليستطرد من بقي معي منكم ضمن هذا التصور الافتراضي ويتخيلني نائما أو ساهيا أو في غيبوبة الألم، ومن دون أي صوت أولي

أو صوت بعيد ينذر بقدوم البلاء، يأتيني صوت الجنون... صوت النهايات الحادة، يقصل الوجود عن الزمن، صوت الترباس يفتحه شيطان رجيم بضربة قوية كي لا يكلفه محاولتين إن أخفق بفتحه بهدوء. مزلاج اسطوانتي حديدي ثخين يخبط، عند فتحه، بمرد حديدي سميك يمنعه الانفلات، ملحوم على باب مزدوج التصفيح لا ليخمد الصوت، كما الخشب أو الحجر، بل يضاعفه لحدّ يفوق التصور والتحمل. أما في الإغلاق يضاف صوت طبش الباب ... يسبق الأصوات الأخرى ويُستبدل صوت المردّ بصوت انغلاق المزلاج، وأحيانا يكون مضافا لا بديلا لحسم أمر الإغلاق. لا ينفع مع هذه الأصوات إغلاق الأذنين باليدين ولا بالإليتين، فهي تُدخلني عبر جسدي كله، من مساماته وشقوقه، فإن لم تجد متسعا لها تفتح جروحي واهترأت جلدي لتكون أشدّ ألما. فإن كانت الأصوات التي يعرفها البشر لا تجرح فهذه كانت تمرّق جروحي. كان يُفتح علي الباب تسع مرات ويغلق تسع أخرى، هذا في اليوم القصير، أي اليوم الذي لا يشمل تحقيق أو حمّامات.

كان يمكن أن أحتمل هذه الأصوات أكثر لو لم يمرروا ذاك التيار الكهربائي الصارع في جسدي طوال أيام وأيام وأيام حتى تلفت أعصابي. أنا لست من أسمى طريقة التعذيب هذه بأنها التعذيب بالكهرباء، هو قال ذلك: والله لعذبك بالكهرباء يا ابن...، هاتولي الكهرباء ...، كنت مطمشا ومربوطا ومكلبشا، في المرة الأولى، وفي كل مرة، حين عقدوا على أذنيّ سلكين معدنيين باردين...، ثوان وإذ بي أخرج من الزمن ومن الوجود الذي أعرفه ويعرفه كل من سكن هذه

الأرض. لا أعرف إن صرخت في تلك اللحظات، كيف لي أن أعرف ذلك وأنا خارج الوجود الحسي. لكن لحظة يتوقف التيار كنت أشعر بالغرفة مليئة بصراخ غير بشري، فأقدر أنه صراخي فلا يمكن لأحد الموجودين ملء غرفة بالصراخ إلا أنا.

الكهرياء لا تؤلم ذراعا أو ساقا أو موضعا محددا في الجسد، إنها تأخذه كله، تنصبه أمام الموت وجها لوجه، تفرد أبجديته فيستحيل مفردات وأحرف بلا معنى. إنها تجربة للفناء، من تطله يعرف أن لا عزرائيل هناك، ربما خجل أن يكون شريكا لهؤلاء الشياطين.

صرت بعد المرة الأولى أعرف من إبعادهم أيديهم وكرابيجهم عني، كي لا يتكهروا، أن لحظة الكهرياء أنت، وأن الكهرياء ستدخلني ولا أعرف من أين ستخرج، ربما من عيوني. فالكهرياء هذه تنفض كل الجسد وكأنها مالكة الأرض فتتنفضه رافضة وجوده على مملكتها. كنت أشعر بها تبغضني وكأنني عشيق سابق تخلى عنها، بنذالة، لغيرها. فتمننى إن صادفتني رغما عنها وعني أن أتلاشى... تنشق الأرض وتبتلعني... أو تنشق السماء عن صاعقة تحرقني وتحيلني رمادا تذروه في عيون غريماتها. فيذهب بها الغل أن تتمثل هي الصاعقة: تستجمع ما لديها من غضب وما أوتي لها من قوة وما دفنه قلبها من حقد وكراهية وتزعقني فأزعق، فأكاد أغيب عن الوجود لولا صوت خبيط رأسي، وكأنه يتحطم بين مسننات وأذرعة صدئة لمحرك دبابة خال من الزيت والشحم يعجز عن الإقلاع، فيهرس رأسي المرة تلو الأخرى تحت إصرار سائقها الذي يبدو أنه يستمتع بأن لا يطحن رأسي ويريحني. فصرت بعد المرة الأولى أعرف نهاية التيار

عندما تنهال من جديد كرايبيجهم وأرجلهم على جسدي المزرق
 والمكتّف على الكرسي الرخيص مثل كل أدوات التعذيب في بلادي،
 كلها رخيصة ما عدا أحذيتهم الأوروبية، بل كلها لمامة من البقايا،
 فالكرابيج بقايا كابلات هواتف رباعية الأسلاك مغلفة بشبكة من
 الأسلاك الفولاذية الناعمة التي يمكن أن تفتق الغلاف البلاستيك
 فتفتق جلد المجلود، فهذا لا يهم. ومولّد الكهرباء الذي رأيته من تحت
 طميشتي المرفوعة دوماً بحدة أنفي، هو هاتف عسكري ميداني تالف
 وقديم لا ثمن له ولا قيمة، لا يحتاج إلا لبطارية تكفيه ليصعق ثورا.
 فبالتالي آلفنا السجينة لم تكلف السلطة السورية شيئاً، ماعدا
 للأمانة سجن صيدنايا الذي كلف عدة عشرات من الملايين، لكن في
 غيره حشرونا كالنقائق في أقبية أبنية القطاع العام المبجل، وفي سجن
 المزة وتدمر الموروثين من عهود وسلطات سابقة، قد تكون سلطات
 الاستعمار، فأنا لا أهتم بتاريخها.

سكنني صبداء مزمن ودائم مذ ذاق جسدي كهرباء العذاب، حتى
 بت معروفاً به ويأشكال وألوان عُصابات رأسي التي كان يساعديني
 بربطها أقوياء مهجعي، حتى عصي عليهم الأمر فصاروا يستعينوا
 بقطعة معدنية لإحكام الشد ليطلق رأسي على ذلك يساعد كمشة
 المسكنات والمهدئات التي أتناولها مراراً طوال يومي. بعض هذه الأدوية
 وصفتها لنفسني، وبعضها وصفوها زملائي الأطباء أو غيرهم ممن
 خبروا المهدئات والمسكنات، وأغلبها وصفوها أطباء المستشفى العسكري
 حيث أرسلوني أكثر من مرة بعد سنين من الإصابة. هناك عاملنا
 أغلب الأطباء بحيوانية تتناسب مع طريقة نيلهم شهاداتهم أو

حصولهم على مناصبهم. فأحدهم على سبيل المثال أصرّ أن يصف لي جرعة مضاعفة من دواء مكتوب في نشرته بلغات أجنبية تحذير شديد أن جرعة كهذه وبالمدة التي حددها كفيلة لتمويت (الشعيرات) الدموية البعيدة في الأطراف، وخاصة في عضلة القلب.

مازلت لليوم أتناول جرعات كبيرة يوميا من هذه الأدوية لكن اخترت أبسطها وأقلها ضررا لأن جميعها لم يفدني ولا مرة، لكن هذا لن يجعلني أقطع الأمل من أن تفيدني ذات يوم ولو مرة واحدة، مع اعتقادي بأن هذا اليوم لن يأتي حتى أشعر بحريتي من جديد وحينها سينتهي صداعي وآلام ظهري.

للإنصاف والمصادقية ليس لكل أبواب الزنازن الأثر نفسه على كل سجين وكل وقت. فزنازين سجن صيدنايا تستحق تسمية كل واحدة منها زنازنة لاتساعها وإنارتها ووجود الماء والمرحاض فيها، فيستغني المستفرد عن فتح بابها. كان عليهم، على ما بدا، أن يعرفوني عليها وكأنه مكتوب على جبين سجون بلادي تحت لوح «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» أن أستكشف كل زنازينها لأكتب عن رحلاتها القسرية. كانت زنازن سجن صيدنايا جديدة لم ينزل فيها قبلي نزيل، نظيفة بيضاء.

هذا المكان، أقصد ذاك المكان غير الذي أكتب فيه الآن أو تقرأ فيه، فلا يمكن وجود هذا الكتاب فيه وإلا لخسر تفردّه الذي أقول فيه أنه التجربة الحسية الحقيقية لمعرفة العدم: زنازن تتشابه وممرات تتماثل لتتشكّل معا: متاهة تصعب معرفة سبلها ومخارجها، صمتٌ

عدمي لا يُسمع فيه نأمة من ضجيج الكون، وكأني خارجه؛ مكان
 خارج حسابات اينشتاين للزمن والسرعة، اضربُ الباب ما شئت...
 اصرخُ ما استطعت فلا يسمعك أحد ولا تسمع صدى صوتك؛ إنه
 العدم ... يمكن لأيّ كان أن يجربّه بشكل حسي. زفزانتك هي كل
 الكون بالنسبة لك، وأنت الوجود الحقيقي الوحيد فيه... وستكون
 متأكدا أنه لا بد من وجود إله في الأعلى ليس خالقك ولكنه سبب
 وجودك هذا، وسبب هذا الوجود الذي أنت فيه، له كل القدرة عليك؛
 يفنيك أو يخرجك من كون ليعثك في كون آخر. لا صرصار ولا
 جرد يتيح الشك بهذا العدم... يشك المرء بوجوده، فوجوده هنا
 مطلق لا يُنسب لشيء ولا لحركة. تتساءل في كل لحظة: ماذا يمكن
 أن يكون خارج هذا المكان؟ أترأه كله عدم؟ أم هناك وجود خارج
 حواسك تدركه بتجربتك السابقة، فتحكم بعقلك أنّ وجودا كان
 قبل سقوطك بهذا السّفْل، لكن لا وسيلة بين يديك الآن لتعرف إن
 كان هذا الوجود ما زال موجودا، فربما تحوّل كلّ أو بعضه إلى عدم
 كعالمك الآن فيهِ، وقد يكون ما تذكره عن وجود مررت فيه خدعة
 شيطانية اخترعتها مخيلتك، أو خدعة بشرية تجعلك تظن أنك
 هناك في داخل ذاك العدم مع أنك مستقل الآن في سريرك في حضن
 زوجتك. هنا فسحة للشك المطلق للأدوية المنفلتة. كيف لك أن
 تعرف أن لا طائفة اخترقت طوابق ذاك السجن فوقك كبرجي
 التجارة، وهل من تركتهم هناك فوق ما زالوا أم زالوا؟ كيف يمكن أن
 يثق العاقل بعقله من دون معطيات حواسه؟ هنا ترجو مجيء
 السجنان، وليخبط المزلاج كما يريد وقدر ما يريد، بل تريد أن يملأ

المكان صخباً وضجيجاً يصعد رأسك ولن تستخدم المسكنات ولا العصبات، تريده أن يبقى قريبك يتلصص عليك وعلى هذياناتك راضياً باستباحته لخلوتك. فإن بقي سأصدق عقارب ساعة يدي، ومن دونه دقاتها كاذبة، فقد لا تكون ضُبطت على هوى حركة الكرة الأرضية، بل اعتادت حركة مستقلة عشوائية من ذاكرة ما، وأبقت عليها في سكون العدم هذا.

لو أخبرتك يا صغيرتي كل هذه الخبريات عندما رافقتني، في ليلتي تلك، أطلّ على شوارع دمشق، نجول مع رفقة نسيتهم، هل كنتِ نزلتِ من السيارة أم بقيتِ... يا ليتك كنت بقيتِ معلقة بمسند مقعدي طول العمر، أنا أقود السيارة وأنت تغنين فيروز: «ياصبح رَوْج.. طوّلت ليلك.. خلّيت قلبي نار، بلكي بتجي أختك تغنّيلك.. بلكي بتجي جلنار». ليتك لم تكتف بملامسة كتفي، يا ليتك أمسكت بهما تثبتينهما بالمسند لاحلّوت الحياة وهانت: أنت تغنين وأنا أتسوسح برخامة صوتك أقود السيارة طرّاً. كيف كان لي أن أعرف يومها، يا صغيرتي، أنه يجب ألا أوقف السيارة وأدعك تنزلين منها، كيف لي أن أعرف أن نظراتك تلك التي ألتقطها في المرأة، وأنفاسك الحانية تدغدغ ظهري، أن هذا حب. فمنذ ساعات، كنت لم أزل بعد في السجن، وهناك لا يدخل الحب والعشق إلا كذكرى مشكوك بصدقها لحاجتنا إليها، هناك تجدين بسهولة ووفرة أكواما من الكراهية واللؤم والقهر. بريك، كيف لي أن أعرف، لحظتها، أن شعرك المسدول على عنقي يحنو علي ولن يخنقني؟ كيف ساميّز بين الحب والكراهية! أنا لا أعرف أصلاً، لحظتها إن

كانا متمايزين... وهل تصدّقين أنني عرفت ذلك الآن؟ نعم، أستطيع أن أجزم: لو عرفتك قبل أن أستحبس لما أوقفت السيارة لليوم أجوب بك جبال هذه البلاد وصحاريها، أعرفك جمال الجرد ويباس الصحاري، فأنت لا تعرفيها مثلي، وأنا مثلك لم أكن أعرفها عندما كنت مثلك لا أعرف من الجمال إلا ما علّموه لي في مدارسنا: جمال مقلوب يملي على الواقع جمالا من ذهن متجبر لا يرى في الواقع جمالا موجودا فيه. شأنك كرفيق رحلتي الأولى إلى اللاذقية، عندما لم يصدّق متعتي بمشاهدة الطريق المطلّة على الجرداء، ولن يصدّقني الآن إن عرف أنني من يومها أستمتع برؤية هذه الطريق أكثر من منظر البحر، ولم ينتبه إلى أنني أمضيت سنينا لم أر التراب ولم ألمسه ولم أشمه، وكان كل ما أراه إسمنتا وحديدا ووجوها كالحة ليس فيها شيئا من جمال ولا حياة، وعيونها صفراء لا بريق فيها وتفوح منها رائحة السجن النتنة. هل تصدّقين الآن أن لدي رغبة لم أحققها: أن أتمرّع في فسحة تراب أمام الناس كما تتمرغ الحيوانات.

وصلت إلى اللاذقية وحدي، بعد أن نزل رفيق سفري في جبلة. نزلت من الباص وكان علي السير ربع ساعة تقريبا لأصل المكان الذي أقصده. طوال مدة المسير تلك لن تتوقف دموعي لحظة، داريت وجهي من الناس أخفي حالي. لم أعرف حينها سببا لبكائي: اللاذقية ليست مدينتي لأبكيها، وإن كانت مدينة أبي، ولا أذكر منها إلا اعتقالني فيها مصادفة. بكيت لأنني وجدت نفسي وحيدا لأول مرة بعد خروجي من السجن في مدينة قهرتني مرتين. فقبل هذه الرحلة لم أبق وحدي أبدا منذ خروجي من السجن. يبدو لي الآن كأنني تقصّدت تجربة أن

أكون وحدي حينها. كنت لا أترك نفسي لوحدي لحظة بحجة أنني أظن بنفسني أخرقاً أحمقاً، يمكن أن أسبب الأذى لنفسني ولغيري. لم يتركني صديقي زكي في أيامي الأولى أعبّر الشارع وحدي ولا مرة، أظنّه رأى خوف وائل السواح من عبور الشارع يوم أُطلق سراحه قبلي بيومين، فزكي ككل سكان دمشق استغرب حيرة وائل وهو لا يعرف وائل يومها ولا الآن، ولم يره، بل رأى خوفه وعرف مصابه، وإلا لماذا كان يمسك يدي كلما اجتزنا شارعاً. أنا لم أطلب منه ذلك، وأصلاً لم أكن منتبهاً لعجزي عن عبور الشوارع، فكل ما أفعله مسك يده بتلقائية الطفل المدرب قبل نزولنا الرصيف دون أن يطلب مني هو ذلك، لأنه من المعيب بحقي وبعمري أن أنتظر منه، في كل مرة وفي أي مرة، أن يمد يده يمسك يدي. كانت يده، ويد من ساعدني أيامها، مصدر أمان لي لعبور الشوارع ولأي فعل حركي تتطلبه حياتي الجديدة. فلن أنسى كيف كنت أشد على يدها، يد صبيتي السمراء، عندما أخذتني تشبك يدي غراماً فرحة بقدمي، فجالت بي شوارع في دمشق أحببت السير فيها طوال عمري. مشينا في طريق الجسر الأبيض الذي طالما سرت فيه نازلاً من العفيف على رصيفه المتدرج أتفرج على تنوع واجهات محلاته. لكن هذه المرة كانت الرحلة شاقة، فكيف لي أن أنظر إلى المحلات وأتخاشى صدم المارة وأنتبه لدرجات الرصيف وأعبّر الأزقة الكثيرة وأغازل سمرائي في وقت واحد!! استحال الأمر علي فلم يكن جسمي وعضلاتي وأعصابي قد اعتادت بعد ضبط أكثر من ظرف. لم يفت سمرائي ارتباكاً، ففسرت لها الأمر. ضحكتُ وحركتُ رأسها دلالة تفهمها وأخذتني إلى منطقة أقل

تعقيدا لتستأثر بي كلي. لا أظنّها أفلحت في محاولتها، ولم يكن ذنبي، فليس بإرادتي أو برغبتني عدم التركيز أو الاهتمام بأكثر من أمر واحد فقط... بل كان يستحيل علي فعل الاختيار في تلك الفترة: كيف سأعرف أن الأهم لي هو شرب الشاي أم سهرة مع صديقة، شرب القهوة أم مداعبة صديقة؛ إن اخترت شيئا كيف سأضمن أنني لا أفوت أفضل منه. كنت أريد كل الأشياء مع بعضها، وكأني غير واثق أن حياتي الطليقة ستطول لأنال كل ما هو متاح لي حينها، كنت أخاف إن فاتني شيء ألا أناله ثانية. هو خوف دفين في أعماقي منذ ليلة فقدي حريتي، عندما عرفت أنني فوت الكثير، وعشت من يومها أحلم أن أستعيده ولم أستطع... فحلّمني خبا وعمري ضاع، وما كان علي أن أنهيه في العشرينات توجب علي أن أبدأه في الثلاثينات.

كيف لي أن أعرف، في تلك الساعات، أيّ الأكثر أهمية لي ولماذا، وبأي مقياس أقيس أهمية الأشياء والبشر... أناي لم تكن قد تشكلت بعد. فالشخص الذي تعاملتم معه في تلك الفترة هو مجرد كيان من دون أناه، فأناه الموجودة، بحكم العادة، هي الأنا المحبوسة، وأناه الطليقة من المبكر أن تتكون خلال ساعات، فهي تحتاج لأيام وأسابيع. هذا ما ظننته حينها لكنني اليوم واثق من خيبة ظني كلما نظرت إلى نفسي متسائلا من أنا، فلا أرى إلا تلك الأنا السجينة اللعينة تظهر لي في المرأة وفي الأحلام. لم يفهم علي أحد هذه المعضلة حينها، ولا اليوم. كنت أقول لهم يا ناس صدّقوني لا أعرف ماذا أريد وأي من الخيارات يجب أن أختار. اختاروا لي إن أردتم مساعدتي ولا تتركوني لحيرتي، فاختراري لن يكون غير خيار سجين أتنكر له.

خذوني بيدي أجرب كل الأشياء، تحملوا أنتم المسؤولية ولو لحين قصير، فأنا ما زلت غراً لأقرر وأختار.

لم تصدقني عروستي عندما قلت لها أني لا أعرف إن كانت تروق لي أو أحبها. كنا جالسين على شرفة بيتهم أحاول تبيان ضرورة انفكاكنا كي لا أظلمها بحيرتي وتيهي. كيف سأفهمها مفرداتي ومشاعري؟ كيف ستتفهم قلبي: إن نطقْتُ بضمير المتكلم عن السجين لصدقتُ القول أن كل نساء الأرض تروق لي حتى أم سليمان. وإن تحدثتُ باسم ذاك المراهق المختال، قبل السجن، لن ترضيني حتى الأميرة ديانا. فأنا يا مسكينتي لا أثق بمقدرتي على اختيار ألوان ملابسِي، لهذا تريني ألبس دوما قميصا أبيضاً وبنطالاً أسوداً، رغم ما يعرضني هذا لإحراج في المطاعم حين ينادوني الزبائن ظناً منهم أنني كرسون في المطعم. لكن إن أصررتُ على أن أختار وأقرر باسم الطليق الجديد فسيكون قلبي انتحال صفة الطليق الحر الذي لم أصره بعد. فكل ما أقوله عرضة للتغيير بكل لحظة لأنني أتغير كلني في كل لحظة. فلا تغامري بربط مصيرك بمن يمكن أن لا يكون له مصير.

لم تستطع فهم ما أقوله، وكذلك كل الطلقاء: لغتين مختلفتين وانفعالاتنا متباينة، كل منا يقدر الأمر غير الآخر، يفرحون لما لا يفرحني ويغضبني أمر يمكن أن يفرحهم، يحبون ما لا أرغب به وما أحبه قد يمتقتهم. كنت بواد والطلاق في وادي، بل إننا في عالمين مختلفين. أنا الأضعف بالمقارنة معهم، ليس لأنني قليل وهم أكثر بل لأنني أحتاجهم وهم في غنى عني، كل الأمكنة لهم والسجن

مكاني، الحياة حياتهم وليس لي غير السجن أو العزلة ما لم أرضخ لشروطهم: أن أتعلم لغتهم، وأتمرس على انفعالاتهم، وأتقن أدائهم، ليس لأنهم على صبح بل لأنني لا أعرف الصبح من غيره. ومع ذلك لا أقبل أن أكون مقلداً لهم، كما لا أمتلك القوة لأكون ما أريد. وماذا يمكن أن أريد إن كنت أنتنكر لأناي الوحيدة، أناي السجينة.

عانيت في البداية، وبعضٌ غيري، من إيجاد تسوية مع الحياة وأصحابها ... أن يقبلوني منهم دون تمييز عنصري وألا يشار لي بالسجين السابق ناقص الأهلية لأكون واحدا منهم: أعمل ما يعملون، وأغضب كما يغضبون، وأنام بلا كوابيس مثلهم، وأعشق نساء منهم. ولكي أتأكد أنني لست الوحيد على هذه الحال كنت أسأل أشباهي عندما التقى أحدهم: هل عشقت؟ كان الشعور بالشغف بامرأة أصدق مقياس يمكن اعتماده لمعرفة استعادة الروح. فكلنا بحاجة للمرأة، فهي خيار جديد بالنسبة لنا. أما الآخرين ليسوا خيارنا، هم ضرورة مفروضين علينا كشروط لحياتنا الجديدة. ربما لهذا لا نرغب بهم. كما التسوية مع المرأة أسهل إذ يهون الكبرياء وتسيطر الغريزة والحرمان. وائل هو الوحيد من بين من سألتهم أجاب بعد حين بالإيجاب. لم أصدقه يومها، وتذكرته بعد وقت، حين اجتاحتني لحظات عشق أفقدتني صوابي ورشدي، حين مشيت مع حورية غفلتُ عنها طوال ذاك الوقت؛ لم أنتبه، طيلة أيام تيهي التي سبقت ذاك المساء، لبريق عينيها وحنينة صوتها رغم أنها لم تغنّ لي، بل لفّت «الكلبة» خصري بذراعها. لم أنتبه قبل همس يدها أن تلك الحنينة التي تشي لي بها عيناها كانت تخصني بها وحدي وليست

عطاء مباحا للجميع مثل زخة المطر التي هطلت علينا لحظتها،
وكان السماء شاعت أن تكون شاهدة، بل متواطئة معها وربما معي
لألفها وأداري رأسها تحت رأسي أشمّ عبق الحب، وأقبله. لم يكن المطر
سببا ليبدأ جسدانا التهاما عرفت منه لأول مرة ولآخر مرة أن
الوركين يتعشّقان، حين شعرت بوركها ينغرز في فخذي ليكمل
التهاماً خلط جسدينا، فما عدت أميز يدي من كتفها ولا خاصرتي
من نهدها. وحين شاعت لحظة القدر العزول انشققنا وكان عينا
حاسدة فلقت روحا إلى جسدين يفضح واحدهما بلل نصفه وجفاف
نصفه، ليحار ناظر لأحدنا كيف ابتل وجف نصفه. افترقنا لتبقى
روحانا دائما على نصف بلل ونصف جفاف. لو كانت روحي نديّة
لحظتها لبللت روحها وأنعشتها فرحا وحياة. لكن الحبس كان ما زال
يسكنني، كما الآن، وأناي العاشقة لم تكن عادت بعد، كما الآن.
فكيف لي أن أحسم أمرا من دون الخوف من نتائجه.

فيما مضى في حياة أذكرها عشتها قبل سجنى كنت شابا
انفعاليا، لم أكبح يوما انفعالاتي ولم أضق مرة من شغف، كنت
أحتضنه مستمتعا بذاتي تنقاد معه. أداريه من حكمة الآخرين، فلا
أقبل كبجه أو التنكر له لأبدو لهم أقوى وأعقل وأكثر مناعة
وصلابة.

هزمني السجن فلم أعد أقوى على استحضار هذه الروح
والتعايش معها، ولم أستطع حمايتها منه مثلما صنت أجهزة جسدي
ووظائفها. محاهها مني ورسم على وجهي وروحي كآبة استعصت على
الأطباء وكل مضادات الاكتئاب، ولونني بألوانها الكالحة المنفرة.

أغسل يديّ ووجهي مرارا في اليوم بلا فائدة، ليعرفني ناظري أنني كئيب وأنني لا أبالي بما يدور حولي وبما يلم بي، إلا كمتفرج. وبات محدثي أو مراقبي يظنني لا أفهم ولا أدرك حجم المصيبة أو البلية التي وقعت علي أو عليه، وتحقرني المرأة حين لا تعود شاغلي بعد أن أزرر قميصي وأرحل.

لم تفضني الأدوية والأصباغ بتغيير سحتي أو ظاهري أو بمحو لون اللامبالاة السجنية من عيوني، فقلت لنفسي ربما الأمر ليس كما أظنه فقد يكون افتقاد لمهارات كما العضلات تفقد مهاراتها ولياقتها لعد استخدامها، وكل الأمر أنني بحاجة لبعض الوقت والتدريب لتعود حيويتي. فصرت حينما يعترضني حادث ما أستحضر حالات الناس في ظروف مشابهة، وأستذكر حالي السابقة، وأستعين بمشاهد من السينما والتلفزيون. فصرت إن جاءني أحد، أو جئت إليه، يشكو فاجعة أو نكبة أغضّ وجهي وأبرير بكلمات لا يسمعها وأحرك ذراعيّ ورأسي بطريقة تظهرني متأثرا، وربما أضمه، وقد أبكيه، لكن أبقى عيناى بعيدة عن نظراته. وصرت إن بادلتني امرأة تلك الكلمات أو اللمسات التي يعتمدها أي رجل وامرأة يتعشمان ارتباطا عاطفيا، أظهر لها الكثير من الاهتمام: أتصل بها مرارا كل يوم، وأرسل لها رسائل على الموبايل. أتدخل، متعاطفا، بكل صغيرة وكبيرة في حياتها. أصر على أسناني إن ضممتها، وأداعب بقاعا في جسدها أهملها رجالها الذين سبقوني إليها. جاهزا إن دعنتني إليها أقطع المسافات وألغي التزاماتي وأكون حاضرا عندها حين تريدني أو تستهيني. أمتعها بغيرتي من زوج أو طبيب لمسها بمجون. ألف كتفها سائرا في شوارع

الشام، أقبلها على مرأى من المارة، أشدها من يدها نزلت مداخل
بنايات مظلمة لأنفخ في جمرات جسدها الخامدة، وأجيبها: إن سألنا
أحد السكان حين يرانا سبب وجودنا في بنايته، سنجيبه أننا نبحث عن
بيت حمزة، فإن استغرب العلاقة بين وجهي المحشور بين نهديها وبحثنا
عن بيت حمزة ركضنا هارين لاهيين كمراهقين أراد كل منهما
التعرف على بيت حمزة الآخر.

نجحت في أداء دور الإنسان الشغوف، لكنني لم أصره ... بقينا
اثنين، هو ملهمي وأنا أمثله. هو حقيقي رغم عدم وجوده، وأنا زائف
بوجودي. يعتقد الكثيرون أنني هو، لكنها كانت تشعر أنني لست هو
فتسألني مستغربة مستنكرة لماذا لا يمكنني أن أكونه عندما أكون في
حضانها تلغني بيديها وساقبها. هو العاشق وأنا مندوبه. ربما كان
مشغولا عنها بسجن أو بامرأة أخرى حين ندبني عنه إليها. رضيت،
علني أصير عاشقا. اتقنت دور العاشق حتى فقت كازانوف، لكنني لم
أصير عاشقا أصيلا، بعد السجن، ولا إنسانا حقيقيا.

بعد السجن فقدت إمكانية حسم أمر أو إنجازه. قبل السجن
كنت أنهي كل أموري حسب ما أريد لها من نهايات، دون خوف من
تبعاتها، وما كان يهمني كسب رضا الناس عن تلك النهايات أو أن
يروها غير مكتملة. الآن فقدت مهارة الإنهاء، تبقى أموري معلقة خوفا
من مسؤوليتها، وربما اعتيادا على عدم الاهتمام. فالسجين السابق لا
يبالى بالأمور، ليس لأنه كسر خوفه، أو كسر أي صار كاسرا، وأنه
لن يصيبه أكبر من مصاب السجن الذي ذاقه كما يتصوره الغير، بل
لأنه اعتاد اللامبالاة واللا رغبة، ومأله الرعب من مذاق دوامة الموت. هو

يخاف أكثر من غيره لأنه عرف اليوم الأول للسجن، اليوم الذي ينسي حليب الرضاعة ويغلف الذاكرة فلا يظهر منها سواء. فإن بدت عليه شجاعة فهي فقد الإحساس بالفروقات، هي تطبّعه بسيّانية الخيارات التي تحرّمه متعة الإنجاز.

حاول كثيرون، بعيد خروجي من السجن، مواساتي: أنت كنت في سجن صغير ونحن في سجن كبير. قولهم هذا يغيظني لا يواسيني. وكان بعضهم حسدني على تميّز نلتته دون إرادتي: إن نبيلي، حسب اعتقادهم، شرف النضال والسجن، أو فخر شهرة زائلة مقبّية من اهتمام الناس في استقبالي في تلك الأيام، فالاهتمام الذي يناله السجين فور خروجه من السجن يتحول عبئاً نفسياً عليه لاحقاً، فلن يلبث الناس أن ينفضوا عنه لأعمالهم ومتعهم واهتماماتهم التي لا تتسع له، ورغم درايبته بأن هذه الأضواء المسلطة عليه لن تدوم، إلا أنه لا يستطيع استيعاب تهميشه بعد التمام الناس عليه، مع أن قسماً منهم لم يأت إلا للفرجة على شكل السجين وهيئته، فهو بالنسبة لهؤلاء ليس أكثر من نشاذ تطيب لهم الفرجة عليه في طريق عودتهم إلى بيوتهم.

كان بعبارتهم تلك «أنت كنت في سجن صغير ونحن في سجن كبير» استخفافاً بدّل السجن، واعتباره فقط مكاناً أضيق مساحة وجغرافية من الحياة. وقد عبر عن هذا التصور أو بالأحرى الموقف بعد سنين طويلة شاعرهم الكبير أدونيس (جريدة الحياة 2005/1/13) معتبراً أن السجن في سوريا تحديداً ليس أكثر من «قيد مادي محدود». وقد انقض على هذا القول لأدونيس أكثر من كاتب

وصحفي سوري يستشهدون به وكأنهم وجدوا ضالّتهم أو مرجعية شرعية لما كانوا يقولونه طوال سنين وعيهم وثقافتهم.

لكن أصحابي الذين كانوا يقولون لي هذا القول فريما أراد بعضهم، بلا وعيه، أن لا يترك لي ميزة عليه فاعتبر نفسه أيضا كان سجيناً، بل وفاقني بأن سجنه كان أكبر من سجني الصغير المقدور عليه لصغره وضآلته. استكثر علي صفتي وهويتي الوحيدة، ظلنها ميزة... ففعل بطولته، رغب أن يسلبني إياها، ظلني متمسك بها. لبيتة يستطيع أن يأخذ عني هذه اللعنة بلا مقابل، حتى لو لم يبق لي ما أتصف به.

كان في عبارتهم استخفافاً بالحياة وبالحرية، كانت تسخيفاً لأحلامي بالإفراج طوال سبع سنين. فلو أصدّق قولهم وأنا سجين لاستغنيت عن أحلامي تلك واخترت البقاء في ذاك السجن الصغير، لأنني اعتدته واعتدت كسله ولأنه حسبهم وحسب أدونيس أهون من خارجه.

كانت عبارتهم محبطة: فطالما أنا مجبر على الخروج من السجن، كما أُجبرت على دخوله، فماذا يجب أن أفعل الآن إذن... وما الطائل من بقية حياتي إذا لم تكن سوى سجننا كبيراً فقط؟ يا ضيعان أحلامي إن كان ما يقولوه صحيحاً. وهل يعقل أن أسف على أيام السجن.

وربما بقولهم أرادوا مواساتنا. لكننا لم نكن بحاجة للمواساة فقد واسينا بعضنا، نحن معشر المساجين، طوال تلك السنين، وما زلنا

لهذا اليوم نواسي بعضنا، فنحن متخمين مواساة. حتى أن السجانين كانوا بعد أن يعتادونا كبشر يظهرين لنا الكثير من المواساة، لكن لا أحد غيرنا يستطيع مواساتنا. حاجتنا للطلقاء المهنيين كانت العون والمساعدة ... أن يأخذوا يدنا برفق، ويصبروا على حبونا ريثما نتعلم الحياة ونكون أسوياء مثلهم، فلن نكون مصدر نفع أو متعة لهم ما لم نشفى من شروخ النفس وخيبة الحلم. لكن أخشى أن يكون البعض، من غير قصد، بمزاودته علينا كان يريد أن يعفي نفسه من مساعدتنا «فأظهر لنا عذره ولم يظهر بخله».

أستغرب حين يسألني البعض مستنكرا ادعائي عدم السوية: وكيف يمكن أن تكون سويا؟ لا ينتبه سائلي أني أحتاج أن أكون سويا لأعرف الإجابة عن سؤال كهذا. ألم تكتب، يا سائلي، أو تبتأس أو تفرح، لساعتين أو يومين، لسماعك أغنية أو مشاهدتك فيلما فشعرت أنك للحظة لست سويا... فكيف تطلب مني أن أكون سويا بعد كل قهر السجن ومبكياته؟ كيف تتوقعني سويا بعد أن تطوّعت، مرة، أن ينزل بسام العلي قربي في المهجع بعد أن أصيب بشيزوفرنيا حادة حسب تقارير الأطباء، فلم يعد أحد يحتمله أو يحتمل شتائمه وبربرته ليل نهار، فاعتبرت نفسي أطول بالاً من غيري وأقدر على احتماله. بعد أيام قليلة ضربته مثل غيري، فقدت حلمي وضربت إنسانا مريضا لا يستطيع التوقف عن بريرة لاإرادية، مثل مريض الربو الذي لا يستطيع إيقاف سعاله وحشرجته. كيف لي أن أكون سويا بعد أن ضربت إنسانا أعرف رقبته قبل السجن، لم يؤذني بشكل مباشر أو إرادي ولا يمكنه الدفاع عن نفسه ولا مهاجمة أحد. كيف

سأعود سويا بعد أن عرفت أنه بعد أن أطلق سراحه بسبب مرضه، الذي نهش جسده فأهزله وأحاله في هيئة شبح، ففعل مثل السجنانيين حين لم يحتملوا رأسه فحبسوه، ومثل رفاقه حين لم يحتملوا رأسه فنبدوه وسخروا منه وضربوه، صدّقهم بأن رأسه لا يُحتمل... رأسه طنان... ففجره بطلقة من بندقية صيد وارتاح.

لا جواب عندي عن سؤال لماذا لم أنتحر أنا وأمثالي مع كل هذا العذاب، فالطلاق ينتحر لأتفه من هذه الحالة. ربما لأن الطلاق يفقد الأمل، أي أمل، ونحن يتلبسنا الأمل بالإفراج، ظنا منا أنه يحمل لنا أحلاما ترفرف قريبة منا بأجنحة ثقيلة تطاها أيدينا فنقبض عليها. وربما لا ينتحر السجن لتساوي الموت وحاله في سجنه، فلا يترجى اختلافا أو افتراقا عن حاله السجينة، كما الطلاق حين يذهب إلى نحر نفسه متعشما بالانتقال إلى كينونة أخرى متخففا من حمل أسباب كربه وكآبته. أما السجن فنائية الوجود عنده هي السجن والحرية، فلو تأكد أن موته يحمله إلى الحرية لما تردد لحظة في الانتحار. فهو لا يخاف الموت ولا يحسب له حساب، فقد لعب الكثير منا هناك عند حافة الموت. فذات مرة أهدى نزار علبة علكة لنزيل زنزانة. لم يكن ذلك كرما زائدا من نزار، مع أنه لطالما مد سجناء محتاجين بما يحتاجونه، والعلكة لم تكن حاجة لذاك النزيل. فالحكاية أننا سمعنا سعال هذا السجن لأيام وليال، سعالا سجنيا بدا وكأنه محملا بفتات روحه وخثرات دمه. وباستيضاح أمره عبر قنواتنا السرية تأكد لنا أنه معزول ليس عقابا وليس بسبب التحقيق، بل لإصابته بسل قاتل... لمعت فكرة في أذهان

أغلبنا، لكن نزار كان سابقا كعادته فأرسل له العلكة ليعلمها ويردها
لنزار مليئة، قدر كرمه، بعصيات السل.

عادت العلكة بعد بعض الوقت ملفوفة بورقة نابلون نظيفة كان
نزار قد أعطاها للمراسل وأوصاه ألا يلمسها بيديه أو يعرضها لهواء
السجن كي لا تتلوث.

لم يستوعب السجن المراسل حاجة نزار لعلكة معلوكة بضم نزيل
زنزانة، ولا أستطيع أن أخمن ماذا خطر في باله حينها وكيف فسر
الأمر لنفسه. تلقفها نزار منه وطرده ممازحا بدل أن يجيبه على
استفساره. جلس قبالتنا لا يعطي فرحته لأحد، ينقل نظره بيننا
وضحكته ملأت كل وجهه. بدأ يفتح لفافة كنزه الثمين على مرأى
من تساؤلاتنا التي بدأت تجول في بالنا: ألن يقرف؟ كان القرف هو
كل ما يثير استهجاننا. لم يلمسها نزار بأصابعه، رفعها مستعينا
بورقة النابلون بكل مداراة ورماها في فمه وأطبق عليها. ماذا سيحدث
لنزار، هل ستموت أمه؟ ألم تكن نقول في طفولتنا في حالات مشابهة:
(من تم لثم بتموت الأم) أم ستموت أم المسلول؟ لكن نحن كبارا الآن
ولا علاقة للأمهات بعلكة حبلى بأسباب الموت. فنزار أراد أن يصاب
بالعدوى لكي يقدم مبررا مرضيا للجنة أمنية أنشأت في تلك الفترة
كانت مخولة بإطلاق سراح سجناء مرضى بأمراض قاتلة أو خطيرة،
شرط ألا يكون السجين خطيرا بخطورة ذاك المسلول الذي سيموت
ليموت في السجن حاملا سره وسله إلى القبر. وخطورة السجين هنا
تعود لأسباب سجنه التي ستقدرها تلك اللجنة على هواها إن كانت
خطيرة أم أقل خطورة.

أخذها نزار بين أسنانه فرحا بمرض سينهش صدره. دَوَّر العلكة على أسنانه ولسانه بمتعة وتلذذ كأنها حلمة نهد. كان ذلك تحت أنظارنا وبتواطئنا، ننتظر نجاحه باستقدام هذا الفرج إلى مهجعنا ينثره علينا من رثتيه حين تمتلئان سلا.

كان علينا الانتظار أياما ليتمكن المرض من نزار، مع علمنا أنه يحتاج لفترة طويلة حتى تظهر عليه علائم المرض، طامعين بفاعلية هذا المرض الحنون. وبقينا أياما وأسابيع ننتظر، ننتظر طلة سعة نزار.. ولم تأت. فكان إن تنحنح نلتفت إليه مستبشرين شرا به، وعندما تتبين لنا سلامته ندعو له: «الله يبليك بداء السل».

فشلنا بفشل نزار، إذ رفضت عصية السل أن تدخل جسده الجميل. ومع هذا فعلي لم يقبل بهذه النتيجة أو يرضخ لها مفضوتا وجود تلك اللجنة المكرمة. فأراد أن يأخذ فرصته طالما أن الأمر كله مجرد لعبة مع الموت وليس أكثر من ذلك، فأخذ كمية كبيرة من أحد أدويتي التي يحظر تناول أكثر من قرص واحد منها، فاثقبت معدته وصارت لا تصلح أن تكون أكثر من غريال... لكنه نجا من السجن.

أسفنا في ذلك الوقت لعدم وجود مرضى إيدز بيننا، فبهذا المرض تكون اللعبة مضمونة النتائج.

هل لإرادة الإنسان دور كبير أو مؤثر في التحكم بتكوين شخصيته عندما يكون سجيناً؟ أليس الإنسان بالعموم هو صنعة الظروف والعوامل والأشخاص المحيطين به، أي العوامل ذات الطبيعة

البيولوجية والاجتماعية والنفسية. فكيف إذن للسجين أن تكون له حرية اختيار ردود أفعاله أو أفعاله في مواجهة سجنه أو في مواجهة الأشخاص المحيطين به من سجانين وسجناء على الشكل الذي تتطلبه أحكام مسبقة. وإضافة إلى ذلك فإن أداء السجين وأفعاله تقاس بمقاييس الخارج ويؤخذ عليه ما يؤخذ على الطليق. فالكذب، مثلا، الذي احتاجت المجتمعات دهورا لتنبذه وتعتبره مخلا بأنظمتها ومنظوماتها، وأقرت العقوبة على الكذابين في مؤسساتها مثل الأسرة والمدرسة، لماذا يكون سلوكا مشينا بالنسبة للسجناء، فما المانع أن يكون الكذب حلالا في السجن، وما الذي يسيء السجناء أو يضرهم إن أخبرهم أحدهم حكايات كاذبة عن حياته السابقة، لماذا يعتبرون فعله نابيا ويسمونه كذاب، وماذا يضرهم إن استيقظ أحدهم من نومه في الصباح وسرد لهم أحلاما مختلفة، أو غيره ادعى في المساء أنه كان يملك فيما مضى مقدرات وإمكانات يعرفون أنه لا يستطيعها، وثالث إن تحدث عن المستحيلات التي يدعي إمكانيتها القيام بها بعد أن يخرج من السجن. فالماضي والمستقبل عند السجين ليسا أكثر من خيال يفبركه على هواه، انعكاسا لحالته النفسية وتعويضا عن العجز الذي يملأه. وهما مهريه من حاضره القرف والمرعب. مرعب كونه بلا نهاية، أو بلا نهاية معروفة ومؤكدة.

وحتى الجنس له نفس القيمة الأخلاقية والاجتماعية في السجن كما في الحياة. فالفعل الجنسي الذي استبدلته البشرية بالفعل التناسلي وقوننته وشرعته مجتمعاتها على هذا المعنى أو القصد، وفرضت عقوبات دنيوية وآخروية عنفية على من يعتبره أو يمارسه

بقصد المتعة، واعتبرته شاذا عن الناموس الطبيعي أو الاجتماعي أو الإلهي. فيبقى الجنس على وضعه وحاله هذه في السجن، وتحرّمه إدارة السجون أو الأعراف السجنية أو التقييمات الخارجية ما لم يكن بقصد التناسل. ولاستحالة التناسل في السجن، حتى لو توفرت الدايات والمياه الساخنة والمطهرون، إذ لا أحد سيقبل على نفسه، رجلا كان أم امرأة أم بين بين، تحمل إثم إنجاب مخلوق في عذابات السجن سيصعب عليهم اعتباره إنسانا أم كائنا آخر، إذ شرط الإنسان أن يولد حرا ومساويا لغيره كسكن من أسنان المشط. فماذا لو كانت المورثات تتغير في السجن وتأتي بمولود مع طميشة على عينيه وكلبشات في يديه ودولاب معلق على مؤخرته.

كنا نجهد أنفسنا بالانتباه لكل شاردة وواردة تمر بنا في السجن ونحاول أن نحفظها لنرويها لكم حين نخرج إليكم، إذ من غير اللائق أن نهجركم كل هذه المدة ولا نأتيكم بخبريات تدهشكم وتستغريون حدوثها فنتمكن منكم ونجعلكم أسرى لحكاياتنا، وبهذا يمكننا أن نبقىكم إلى جوارنا تؤنسون حياتنا لكي لا نحن للسجن.

كانت تلك المراقبة تعزينا وتسلينا إذ كنا ننظر لكل العذابات التي نعيشها ليس كما تحدث بل كما يمكننا أن نرويها، فنحولها من لحظتها إلى حكاية وإن لم تكن حكاية بل ذلا. كنا نرتبها حاضرة في ذاكرتنا لتكون جاهزة للحكي والروي بعد الإفراج الذي كنا نحلم به يوميا ونتوقعه في كل لحظة. واللحظة في السجن ليست هي نفسها التي تعرفونها وتقيسون بها حركتكم وحركة الوجود حولكم. فلحظة السجن قد تكون شهرا أو دهرا.

هذا الأمر يخص حصرا السجناء اليساريين الذين خبروا سجننا غير الذي خبره اليمينيون ولو كانوا في نفس السجن. فلا بد أن الإخوان المسلمين كانوا يتعاملون مع الموضوع بشكل معاكس تماما، فإذا هم واثقون أنهم لن يجرؤوا على البوح بما رأوه في السجن من هول مارأوه ومن خشية إن حكوا عنه أن يعادوا إليه عقابا. فكان همهم أن يحولوا دون أن تحتفظ ذاكرتهم بمشاهد وصور عذاباتهم خشية أن يدخل ذاكرتهم سجان فضولي يبحث عن ملقط شعر ينتف به شعر وجنتيه لكي لا يطاله النعاس في نوبة حراسته فيرى تلك الصور محفوظة فيها فيعاقبهم بالفسخ أو بتكسير الأضلع السائبة متهمهم بالاحتفاظ بها قصدا.

أغلب نقاشاتنا كانت عن موعد الإفراج، وكأنه كان يتوقف على قوة حاجتنا على ضرورته في لحظة أو بأخرى. فكان يحاول بعضنا، وهذا البعض هو أي واحد فينا إذ كنا نتناوب على هذا الموقع من دون ترتيب أو ناظم، كان يحاول هذا البعض إقناع الآخرين بأن الإفراج قريب، وكان يقوم بذلك بجهد واجتهاد وحماس، كما لو أنه يريد من يأزره وينضم إلى قناعاته، وكأنه إذا حقق أكثرية سيكون له الأمر. أو ربما كان يخاف إن أخفق أن يخيب أمله لو حده. وأحيانا يتشكل عند البعض، ذاك البعض أو غيره، ما يشبه اليقين بموعد حدده بنفسه أو أهدي له في الزيارة، وعندما يأتي يومه الموعود ويمر كسابقه ولا حقه ينهار منكسرا، ويزيد عليه همه تهكم البعض عليه وعلى توقعاته الخائبة، لكن لا يخلو الحال من آخرين يواسونه ويعشمونهم بيوم بديل من صنع سجين آخر أو بزيارة أخرى.

لم يكن أبو عزيز بحاجة لتوقع يوم الإفراج أو قبول توقعات الغير فقد كان يتعامل مع السجن بشكل مختلف عن الآخرين. كان يستيقظ باكرا جدا قبل أن تُفتح الأبواب. يوقظني بعد أن يسخن إبريق ماء لشرب المتة، أنهض نصف جالس فلم أكتف بساعات النوم القليلة بعد سهري المتأخر دوما. لو غير أبو عزيز أيقظني لسبب أهم من هذا بكثير ربما سأتشاجر معه، أما هو فلا يمكن أن أرد له طلبا مهما كان بسيطا وغير مهم، لأن لديه من الشهامة ما يكفيه أن يمنّ علينا جميعا بخدماته ومؤانساته التي لا تتوقف ولا تنته. كان أحب الشباب إلى قلوب الكثيرين، خاصة المنبطحين أو المندلقين حسب تعابيره. كان أطيّبا وأكثرنا إخلاصا وودا. نموذج للإنسان الحر، لم يستسغ أي شيء في السجن ولم يقل كلمة طيبة واحدة بحقه كما قلنا جميعا. كل ما يفعله في السجن هو لتمضية اللحظات ريثما يصل نداء الإفراج. فحتى القراءة، لهُاية السجن، لم تستهويه، رغم أنه إن مسك كتابا، أحيانا، لا يتركه لينهيه. لا يحب القراءة سجيّنا ولا يحب أي شيء وهو سجين. يريد أن يفعل الأشياء بإرادته، وهذه شرطها أن يكون خارج السجن، فهناك سيفعل أي شيء يختاره، وسينجزه بإصرار ومتعة لا يعرفها إلا الأحرار، مثلما استطاع أن يشق طريقا لبيته بيديه ومعوله في سفح الجبل الصخري، بُعيد أن خرج من السجن. استغرق معه هذا الطريق أياما وأشهرا، لكنه أنجزه. يمكن لأبي عزيز أن يفعل أي شيء شرط أن يختاره، فينال متعته.

أشرب معه المتة ونردش، غالبا، حول خروجنا من السجن. في هذا الوقت المبكر لا يمكن لحديث أن يحضرنا سوى أحلام يقظتنا نتشارك

بها. تبقى هكذا حتى تنفتح الأبواب، لبدأ هو يومه ولأتابع نومي.
كان ينهض باكرا، دوما، ويغتسل ويشرب المنة ويفطر ليكون جاهزا
للحظة الإفراج: عاش دوما لحظة ما قبل الخروج... كل سنين سجنه
عاشها وكأنه يسمع تلاوة قائمة أسماء المُفرج عنهم منتظرا دوره،
وكل الأفعال التي يقوم بها في النهار هي ترجية الوقت ريثما يسمع
اسمه. كان ينظف أدواته فور انتهائه منها، ليكون جاهزا لحظة
الرحيل، لا أن يكون منشغلا بالجلي. أوريما اشتروا للإفراج، في آخر
لحظة، أن تكون أدوات المحبوس نظيفة. حسب تصوره أن أمر الإفراج
سيأتي في الصباح مع فتح الأبواب، وصدقت نبوءته، لهذا يصحو
باكرا وينجز يقظته كي لا يتخبط ويرتبك لحظتها، لدرجة أنه
تخفف من الكراكيب التي يجمعها السجناء ليكون خفيف الحمل
لحظة الإفراج. فلم يكن يملك سوى بعض الأشياء القليلة المرتبة
بشنطة من نوع سَكْ صغير مفتوح يضعها غالبا عند قدميه قرب
شحاطته، ليسهل عليه لبس الشحاطة وتناول الشنطة عندما سيهرع
تنفيذا لأمر الإخلاء خوفا إن تأخر ثانية أن يغلقوا الباب، لأي سبب،
وتفوته فرصة الحياة.

لم يهتم أبو عزيز يوما بكل سياسات العالم، لا قبل السجن ولا
فيه. جاء من أسرة فقيرة باتت ليالٍ دون عشاء حين لا يجد أبوه، الذي
كان متوفيا عندما عرفت أبو عزيز، عملا في ذاك اليوم. فأبوه كان
يعمل حجارا ينقر الصخر بأدوات حادة ليصنع منها حجارة جاهزة
للبناء، ولقد علم ابنه، حين كان يعمل معه، أنه إن أغمض عينيه وهو
ينقر الحجر خوفا من شظية تدخل فيهما فلن يصنع حجرا جيدا.

لهذا بقيت عينيّ أبو عزيز لا ترّف عن ترّقب الحرية، أراد أن يصنعها على هواه دون أن يغفل عنها لحظة واحدة، أراد أن يرى نقرة الإزميل حين تحضر على صخرة حياته كلمة الحرية.

عندما اشتغل أخوه الأصغر اشترى لأبي عزيز بيجاما رياضية رخيصة من أول راتب يتقاضاه. طار أبو عزيز فيها فرحا غاصا بدمعة قاهرة من طول سنين السجن التي جعلت أخوه الصغير يصرف عليه بدل أن يكون العكس. بعد عدة أيام غافلني أبو عزيز، وأنا نائم، وقطع أساور أكمام البيجاما، فلم يعد يستطيع احتمال حبسها لمعصميه. كنا تجادلنا لأيام عن ضيقه من هذه الأساور ورفض فكرة قطعهما بسبب رمزية هدية أخيه، لكن أبو عزيز لا يحتمل حبس معصميه. فهل يمكن أن نعود أنا وأبو عزيز أسوياء بعد كل براميل المته التي شربناها قهرا في السجن.

إن تصرفنا مثلكم لا يعني أننا أسوياء. لا، فنحن نفترض أنكم أسوياء فنقلدكم لا أكثر، نحن لسنا نحن بل أنتم، أو أشباهكم. لو كانوا يسمحون لنا بكاميرا فيديو في السجن لاستعرت واحدة من أحدكم ورجعت مسرعا بالزمن إلى الخلف وصوّرت لكم عينيّ أديب في يومين متتالين منفصلين لكي تصدّقوا، لأنكم ما عدتم تصدقون إلا ما ترونه في أفلام الفيديو فتقتنعون أنه ليس في الواقع جميلات إلا جميلات الفيديو كليب، ولا وجود للحقائق إلا ما يأتيكم عبر تصريحات وخُطبات أسامة بن لادن. لو كان يمكن ذلك لكنتم فهمتم ما أقول وصدقتموه، وكنت استغنيت عن شرح الأمر، وما كنت حكيت لكم حكاية أديب عندما جاء يسألني، فور عودته من استدعاء طارئ

من رئيس الفرع: هل أبكي أم أفرح؟ سألتها: ما بك، ماذا حدث، ماذا أراد منك؟ أجابني: والدتي ماتت... و ... أخلوا سبيلي. كان يومها 21 آذار عيد الأمهات. ماذا سأجيب هذا المخلوق! لم يكن أديب يومها أكثر من مخلوق. ومن أنا يا أديب حتى أجيبك عن أصعب سؤال يمر في حياتي؟ قلت له أسرع في الخروج وستجد أن الجواب ينتظرك هناك في الخارج. أريد أن أودع الشباب، أجابني. دفعته: اذهب وعد غدا لتودعنا. كان يمكن أن يعود فهو من فئة المدعومين، وإلا كيف يحظى مثله بإخلاء سبيل فردي.

عاد في اليوم التالي فعلا، عاد شخصا آخر أوشكت ألا أعرفه، ليس لأنه يلبس ملابس تدل على سويته الاجتماعية لم يكن يرتدي مثلها وهو سجين، بل لهيئته التي تبدلت كلياً، لدرجة جلست على يطني احتضن ركبتي صامتا لا أسمع من كلامه إلا نبرة صوته، ولم أرفيه إلا عينيه. كنت أسمع صوته هذا لأول مرة، كأنه جاء به من خزانة ملابس أكسسوارا مع هذه البدلة تحديداً، وربما لديه العديد من الأصوات غيره بعدد بدلاته. امثل من يخاطبهم لرنه صوته الجديدة: مازحوه بأدب، على غير طبيعتهم، وحدثوه باحترام. خاطبهم، على غير ما عرفناه سجيناً، كأرستقراطي محترم مفطور على آداب الحديث واحترام من هم أدنى منه مكانة اجتماعية بأخلاق متدين بإسلام سمح.

لا يمكن أن أنسى يوم أدخلوه إلى مهجعنا في أحد المساءات يرافقه سجان لطيف يتقدم موقوفين من السخرة (سجناء بتهم تافهة يفرضون عليهم تنظيف السجن ويسموهم سخرة أو بلدية في غير هذا

السجن) يحملون بطائيات ضيفنا الذي بدا من هذا الإجراء أنه مدعوم جدا، فغيره يحمل بطائياته بنفسه.

دخل أديب دون أن يرمي السلام ودون أن ينظر إلينا أو للمكان الذي دخله لأول مرة، هكذا بدا لنا. عرفت فيما بعد أنه لم يكن يعرف أن هذا المهجع للمدعومين فقط، وأن أهله كان لهم وضعا مهما جدا، وأنهم فعلوا المستحيل، أو دفعوا الثمين، ليتمكنوا من إحضاره إلى هنا. لم أنتبه إلى ماذا كان يلبس، فلباس القادمين من سجن تدمر متشابه: قميص داخلي أبيض، أو كان أبيض يوما ما، وينطال بيجاما خفيف القماش فاتح اللون ربما ليتناسب مع «التيشرت»، ولم أنتبه إن كان حليق الحواجب كحال رأسه وذقنه وشنبه، مثل كل التدمريين، لأنه كان يميل للون الأشقر وجلده لم ير الشمس، ربما، منذ اعتقل. ربما لم ألمح حواجه ولم أنتبه لتحيته لأن أحدا منا لم يروجه الذي يتدلى حتى يكاد يلتصق ب صدره، وربما يلتصق. فرقته استطالت بانحناء شديد، كحال كل التدمريين، حين تمضي عليهم سنين لا يحق لهم رفع الرأس في أي ظرف كان، لا أثناء الحلاقة ولا أثناء الحمام ولا أثناء الألم، وبالتأكيد ولا أثناء الموت. كوّم السخرة حملهم عند مدخل المهجع وخرجوا مع السجن اللطيف. اعتبر أديب، على ما يبدو أن المكان الذي رميت به بطائياته هو مكانه المحدد، وأن الوضعية التي وضعوا عليها هي قسمته في هذا المهجع حسب قدره المكتوب، فجلس هناك، عليهم.

لم يعرف نزلاء مهجعي مثل هذا السلوك من قبل. فلم يتحرك أحد منا لاستقباله، فنحن هنا مدعومين ولا نرحب بأي مدعوم وافد

إلينا سيأخذ منا مساحة تضيق علينا المكان حسب ما اعتدناه. لكن بعد لحظات قليلة جدا بادره أحدنا يسأله اسمه وتهمته، ثم يُجب. كرر آخر السؤال ودعاه للجلوس بيننا، ثم يُجب. سؤال آخر وطلب آخر، وأديب لا يكش ولا ينش. ألهذا الحد هذا المدعوم مغرورا ويرفض متكبرا دعوتنا وضيافتنا ورفقتنا! لكن هذا النحول الشديد، وشحوب الموت الذي يعلو وجه هذا الكائن لا ينم عن غرور... ولا حتى عن إحساس بالذات، بل هي سنين سجن تدمر حولته حطاما فلا يتجرأ أن يقبل دعوة أناس مليئين بالشعر والثياب ... فربما هذا هو مقلب الموت الذي ينتظره ... وما إن ينهض إلى هؤلاء المتمظهرين بشكل البشر حتى ينقضوا عليه شياطين ينهشون جلده وعظامه بأسنانهم الصفراء.

لم يتأخر هذا الاستنتاج عن أذهاننا سوى لحظات قليلة، ليبادر أكثر من واحد منا إليه يرحبون به ويطمئنوه بشكل أو بآخر أنه بأمان بيننا، لكن هذه الطمأنينة كانت مستحيلة. عرف من دنا منه لحد الالتصاق أن أديب كان يرد على كل سؤال، وأنه من المؤكد ألقى علينا تحية مسالة عندما دخل. لكن ما كان يمكن لغير لصيقه أن يسمعه، كحال كل التدمريين الممنوعين لسنوات من استخدام حناجرهم وحبالهم الصوتية، فليس مسموح لهم سوى الومي، ومن خلف ظهر السجان يمكن للشجعان أن يهمسوا أو يفحوا.

نجحنا خلال سنة أو سنتين، قضاها أديب بيننا، أن نجعله يرفع صوته ليسمعه من يبعد عنه مترين أو ثلاثة، ونجحنا بجعله يبتسم ويطلق شاربيه، لكننا فشلنا أن نُضحكه أو نجعله يصرخ أو يغضب أو ...

يطمئن. كان يحتاج لأكثر من كلامنا ومساعدتنا، ولأكثر من كلام أهله وابنته التي ولدت بعد اعتقاله، بل حتى لم يطمئنه كلام الضباط المسؤولين عنا من أنه لن يعود إلى تدمير ويتلاقى مع الموت مرارا هناك كل يوم. كان بحاجة للخروج من السجن لينطلق صراخه ولتتفعلت ضحكته تُعيد روحه المرحّة الطيبة، وأنا متأكد أنه بحاجة لي هجر سوريا لتعود له الطمأنينة. أنا واثق مما أقول بعد أن عرفت، أنا فقط، سبب عدم كشفه كتفيه ولا مرة أمام الآخرين. عرفت ذلك عندما احتاج مضطرا أن أدلك كتفه المتشنج، مشترطا أن أدلكه من فوق القميص، ومع ذلك لامست تلك الندبة الكبيرة على كتفه، وسألته: أهذه هي السبب؟ هز رأسه المسنود على الأرض تأكيداً. سألته وما المشكلة إن عرفنا بها، فأنا عندي أكثر من واحدة صغيرة منتشرات على كل جلدي الأمامي وأدابعهم دوماً. ثم يُجب. سألته السبب، قال لا يمكن لأحد حتى زوجتي أن تعرف قصتها. صمتُ جَفْلاً عندما سمعت جملته الأخيرة القادمة من أعماق رعيه، ولم آت على ذكرها معه مرةً أخرى.

عندما رأيت عينيه خلال زيارته لنا عرفت الفرق بين السجين والطلاق ... لماذا عدت يا أديب ألتقهمني بعينيكي الحرتين. أسفت على وجودي سجيناً... أردت لعينيّ بريقاً يلفظ انتباه محدثي أو سامعي. وددت أن تعود الحياة لهما، لا أن يكونا فقط مجرد أداة لا نفع كبير لهما في السجن. فإن كانا لمجرد معرفة الطريق إلى الحمام أو للسير في ممر الجناح الخالي من الأغراض والدرجات والحفر والمطبات الاصطناعية، ولعدم وجود السيارات والطنابر أو صبايا جميلات

ممدات في لباس البحر على أطراف المهاجع فمن السهل الاستغناء
عنهما، فليس أسهل من حفظ طريقة سير آمنة بمساحة ضيقة
صغيرة غير عَثرة. لهذا كان الناس يستغريون عيوني ونظراتي بعيد
خروجي من السجن ويشكون منها، ويطلب مني بعضهم أن أشيحها
عنه ليتمكن من الكلام والتصرف بطلاقة.

لم تكن نظراتي وقحة كما تتصورون، ولا شكاكة فيما تقولون
أو تفعلون. وإن كانت تعريكم فليس من لباسكم بل من أي غشاوة
تحجب روحكم عني ... كانت تفتش عن الحرية داخلكم. كانت
عيوني لهوفة دهشة لا ترمش حرصا من أن يفوتني خلال زمن الرمشة،
الطويل جدا في تلك الأيام، حرفا أو نامةً منكم تدلني أو ترشدني إلى
حريتي التي فقدتها في سبع سنين رمشت وأغمضت عيني خلالها ما
يكفيها لتبقى مفتوحة العمر كله. كانت نظراتي تكتشف نفسها
من جديد، وتتعرف على إمكاناتها المنسية من جديد، فالرؤية ليست
عادة لا نفقدها مثل ركوب الدراجة أو ممارسة الجنس. الرؤية
إمكانية وفعل حياة دائم، الرؤية تواصل، والتواصل خبرة وذكاء وليس
عادة. فالإنسان رؤية أدواتها العين، وما باقي الجسد ليس غير زخارف
جمالية لإمتاع العيون الأخرى.

كان السجنانون بشرا من بلادي، لا يميزهم عن آخرين عرفتهم
في حياتي قبل السجن شيئا. وصدف معنا أكثر من مرة أن يكون
السجان شقيق سجين، أو ابن عمه أو زميله أو صديقه. فليس السجنان
والسجين، في بلادي، مخلوقين مختلفين ولا هما من عالمين متباينين.
فغالبية السجنانين غير المسؤولين جاؤوا بهم إلى السجن بشكل

اعتباطي من دون اشتراط ما يميزهم عن أخوتهم أو أبناء عمومتهم أو أقرانهم. إنهم هنا لتأدية خدمتهم الإلزامية التي نسميها، إكبارا لها، خدمة العلم. فعندما تفرزهم السلطات إلى السجون ليكونوا حراسها لا تقصد من ذلك حرمانهم من خدمة الوطن أو العلم، أو إثارة أخوتهم أو أبناء عمومتهم عليهم حين ترسلهم هؤلاء إلى الجبهة الخارجية، فهي تعتبر أنها تنصف أولئك وتعتبرهم يحظون هم أيضا بخدمة الوطن من خلال الدفاع عن جبهته الداخلية. لكن أسياد هؤلاء المسؤولين يعرفون حقيقة الأمر، وأن تحويل هؤلاء السوريين إلى سجانين هو دفاعا عن جبهة السلطة الخارجية. وبالنتيجة فإن قسمة هؤلاء الصبية والشبان الاعتباطية هذه قد تؤدي بأحد الأخوين سجيننا والآخر سجانا، وربما بمصادفة قسمة أخرى يتبادلون المواقع.

لفت انتباهي، مرة، سجان جديد لا يبدو عليه أنه تجاوز الثامنة عشر من عمره. أنا لا أنتبه كثيرا للسجانين، لأنني لا أجيد إقامة علاقات جيدة معهم، ليس لأنهم سجانون بل لأنني أفتقد مهارة التعارف والتواصل السهل بالغير. كان هذا الشاب خائفا خجولا وجلا لم أره لوحده ولا مرة في الفترة الأولى، كان دوما برفقة من هم أقدم منه... معلّميه. وبدا عليه أنه يخاف السجناء إن فتح لأحدهم باب زنزانته، فضي حياته المدنية لم ير سجناء إلا في التلفزيون، وكانوا غالبا مرعبين. أو أنه يخاف من فكرة السجن أساسا، فيخاف ممن يتلبسها سجيننا.

بعد فترة كانت مناوبته ليلية، وكان السجن هادئا، وكان مجبرا أن يكون لوحده في الجناح، فالوقت متأخر والمعلّمين ذهبوا

ليناموا. نادى على أحد السجناء السخرة وطلب منه القيام بعمل، وبعد برهة اعتبر أن السخرة لم ينفذ عمله بالشكل المطلوب مفتعلا حجة كي يعاقب هذا السجن. فصفعه على وجهه صفعة خفيفة لم تكن كافية لهش ذبابة عن وجهه السجن ... لو وجدت فعلا، وكرر ذلك مرتين أو ثلاثة. ضحكت في سري متألما أسفا عليه لمعرفتي إلى أين سيؤول به الأمر. فبعد أيام صار صوته الحاد يملأ الجناح، ولا يترك الكرياح من يده يضرب به كل سجين يمر به من دون أي سبب، فإن لم يجد سجيناً يضرب الحيطان. حزنت على هذا الصبي الذي بكته أمه، مثل كل الأمهات السوريات، يوم فارقها لأول مرة في حياته ليعخدم الوطن: ليحميها ويحمي أخوته وأبناء قريته من ضيم وشر يتربص بهم من ذاك الغريب وراء البحار أو وراء الجولان ... أو وراء البقاع. ستنتظره أمه طوال سنين عسكريته، يوما بيوم، داعية عودة صبيها بخير وسلامة. وهي تعتبر، كما كلنا، أن هذه الخير والسلامة هي ألا يموت أو يفقد عضوا من أعضائه. لكن أن يتحول إلى جلد صغير أو فرخ سفاح فهذا لا يدخل في حسابنا ولا في حسابات أمه ضمن جردة الخير والسلامة. فالإصابة النفسية، بفهمنا، هي خارج دائرة العافية. لهذا يعتبرنا الطلقاء، نحن معشر السجناء، طالما أنه لم ينقصنا عضو من أعضائنا في السجن أننا أسوياء. ولا يهتم أغلب مثقفينا «الثوريين» عندما يحرضون الشباب على منازلة السلطات و«الأعداء» ... حجم الضرر الذي يتسببون به لهؤلاء الشباب والصبية في بنى شخصياتهم، أولا، بما يقدمونه لهم من فهم حرجي أو عنفي، ولا يهتمون، ثانيا، لما سيصيبهم إن حصلت المنازلة ووقعت الواقعة

وسقط هؤلاء الشباب بين أيدي صبيبة كذاك الصبي الذي لم يرتكب أي ذنب ليكون جلادا، سوى أنه شاب سوري مجبر على خدمة الوطن... أو السلطة.

جاءنا بعض هؤلاء المثقفين، الذين مازالوا يحرضون صبيبة الوطن ليكونوا سجناء أو سجانين، لزيارتنا بعيد خروجنا من السجن. ما فعله هؤلاء كان زيارة ودية (هكذا يسمونها) أو لدعوتنا لغداء أو لعشاء أو لشرب سائل ما في مقاهي ونواصي المثقفين. ولا يظن أحد أنهم قدموا ذلك مكافأة لنا، بل ثمنا لفرجتهم علينا أو لعرضنا على أصدقائهم، وخاصة صاحباتهم، على أننا أشياء تخصهم مثل لوحاتهم ومقالاتهم وإبداعاتهم ... يعتبرونا إحدى إنجازاتهم. كأنني كنت بحاجة منهم لكوب بيرة!!

هل رأيهم أحدهم كيف يجلسون معنا أو بالأصح كيف يُجلسونا معهم، فهم أصحاب الدعوة. كان الواحد منهم يغوص في كرسيه ماداً ساقيه على طولهما مقرباً صاحبته إليه على يمينيه أو على يساره، لا فرق، ويرميني على أحد أطراف الطاولة منكمشا على نفسي مهما حاولت تمثيل الاسترخاء. يسألني سؤالاً أو سؤالين عن السجن أو ما بعد السجن أو عن أي شيء، ولا ينتظر جوابي ليبدأ هو من عبارتهم المعهودة أنه كان داخل سجن كبير، مسترسلاً بعرض نجاحاته ويطولاته ليس لي، فهو يرى في عيوني سخرיתי منه، بل لصاحبته. من يسمعه يتحدث بهذا الحماس ينشرح صدره أملاً، لكن كل ما يفعله هو حسب، زياد الرحباني، ييلفها وييلفني ليضاجعها ويزيلني. لا تبتأسي يا امرأة فأنا وأنت، يا صاحبته، ضحيتيه، جمهوره

المأخوذ، متفرجيه، تسليته. هذا حقه علينا طالما هو صاحب الدعوة وصاحب الخطوة وصاحب النفوذ وأملنا في العمل ورجاؤنا في السلامة، كاللنا يحتاجه، نتعشم فيه حريتنا.

غبين أنا وأنت يا صاحبتة، خذلنا غيره أكثر من مرة، بل دوما، بنفس الخطاب والشعارات وذات الحماس، ونحن لا نتعظ... كم نحن مساكين يا صاحبتة. أنا اتعظت لكن بعد حين ومين، بعد أن ذليت نفسي له ولأمثاله باحثا عن عمل راجيا أن أحقق وجودا كريما عبره. كان يسألني أنا أو غيري، هو أو غيره، بعد أكثر من سنة على خروجنا من السجن: ماذا تعمل الآن؟ عملي الوحيد هو بحثي عن عمل. فيتأثر جدا لحالي وأمثالي ويلعن البلد والوطن والعروبة. نفترق ليركب سيارته ذاهبا إلى مطعم يفش خلقه فيه، فيشرب زجاجة ويسكي مقهورا على حالي ليفرط حاله بعدها، فيحتاج إلى سيدة يأخذها إلى شقة السفاد التي لا يملك ثمنها فاضطر إلى استئجارها مفروشة في حي التجارة أو المزة أو مشروع دمر وربما في الحجر الأسود، فهذا حسب التيسير. أؤنب نفسي لهذا الذنب الذي ارتكبته في حقه وفي كل مرة أقول لن أشكو له، ولأشباهه حالي البائسة مرة ثانية كي لا ينجلطوا قهرا على حالي.

اعتقدت أن العمل هو السبيل الوحيد لخروجي من صفة السجين السابق التي لم أكن غيرها في ذاك الوقت، ولوقت طويل. كنت أمقت هذه الصفة التي تلازمي كل ساعات يومي، وما زالت تلازمي لليوم، لأنني لم أكن اختلطت بعد بغير الناس الذين يعرفوني سابقا. لذلك شعرت بمتعة المغامرة حين طلبت من صديقي زكي أن يبتعد قليلا

عني ويتركني أجرب شراء باكيت دخان بنفسي. أردت أن أجرب
إمكانيتي بالتعامل مع الغريباء، وأردت أن أرى عينيّ البائع وهو ينظر
إلي، إن كانت نظرته كنظرة الآخرين لي، أم أنه سينظر إلي كما
ينظر لبقية خلق الله. أردت أن أتأكد إن كان شكل السجين غيره
شكل الطليق.

لم أعرف أحدا علي أنني سجين سابق ما لم تكن ضرورة لذلك،
فصفة السجين السابق كانت تسبب لي حرجا شديدا. كنت أريد أن
أتصف بشيء أنا صانعه، أردت صفة الفاعل أو اسمه أو صفته لا
المفعول به أو فيه. لهذا كنت لهوفا للحصول على أي عمل يوسمني
وأخرج للناس به. كأن أكون فرانا، وأنا كذلك الآن، رغم ما يبديه
مقربيّ استهجانا لذلك، لكنهم لا يعرفون فخري بأن أكون فرانا
ولست سجيّنا.

لكن صفة السجين السابق تبقى أقوى من صفة الضران رغم
نيرانيتها، فهذه تزول بزوال المهنة أو بطغيان غيرها، أكثر سموا منها،
عليها كصفتي كاتبا. وحتى هذه لا تصمد أمام صفة السجين
السابق التي تحرص أجهزة المخابرات على إبقائها ملازمة لأمثالي
طالما أنا خارج السجن وطالما هم مخابرات يسعون لإبقاء سبب لعملهم
الخزيّ، وليستمتعوا بممارسة لؤمهم الذي استمراوه من طول مدة
سطوتهم. فلا يتركون قريبا أو جارا، حيا أو مدينة، جدة أو طليقة، إلا
ويستمرون بالسؤال عنا. لتأتي تلك المدينة أو ذاك الجار الذي عرف
لتوه صفتي الدائمة لأربعة عشر عاما يسألني: ألسنت نادما على
سجنك؟ فأجيبه حسب الهوى. ودخلك ماذا استفدت من نضالك،

أما كان الأفضل لك لو... أو... أو...، فأتركه يعظني ويأستد عليّ
إن كان زبونا سيشتري كمية فطائر محترمة مني، أو أجلبه
بمحاضرة لن تقنعه مهما طالت إن كان مجرد جار، أو غريب، أو عابر
فرن.

لم تقتصر حاجتي، وأمثالي، للعمل على اكتساب الصفة أو
التوصيف، بل كنا كباقى بني البشر نحتاج لدخل مالي نعيش منه
أو به. فأعمارنا التي زادت ونحن في السجن لم تعد تسمح لنا أن نأخذ
مصرفنا من ذوينا، وكان ذلك سببا لتخلي الكثير منا مثلي
ومنصور ووائل وآخرين عن متابعة دراسته من حيث توقفت يوم
اعتقاله.

قلت لنفسي ذات مرة: لربما أصدقاؤك المثقفون الثوريون
التحريضيون يُحَرِّجون إن عرضوا عليك عملا عندهم أو عند
أمثالهم، أو ربما يظنون أنني متطلب كبير لا أقبل بعد كل سنوات
«العمل السياسي النضالي» بأقل من مرتبة زعيم أو وزير أو مدير عام
أو رئيس مهجع، وهذا خارج طاقتهم. وتبين أنني كنت مخطئا بهذا
الظن حين وضحت لهم الصورة بأني بحاجة ماسة لأي عمل، فيسألني
واحد: ما الأعمال التي تجيدها؟ أجيبه: أن أكون سجيناً ... إنها
حرفتي الوحيدة التي أتقنها. ماذا تتوقع من سجين لسنوات أن يتقن
من أعمال! لقد فقد كل مهاراته السابقة. لكن حاجته الماسة للعمل
ومقدراته الذاتية تؤهلانه لإتقان الكثير من الأعمال في وقت قصير.
فيسألني منتصرا بإجابتي التي تأخذه إلى إعفاء نفسه من تبعتي: وما
الأجر الذي تتوقع أن تقبضه؟ فأعرض رقما يستهجنه ويستكثره،

اتنازل عنه وكأننا في بازار، حتى أرسو على مبلغ الثلاثة آلاف ليرة الذي لن يكفيني شيء. فيعد: سأحاول! ويقطع منتقلا إلى حديث مختلف ومع ذلك لم أهوّن الأمر عليهم على ما يبدو، لأنني لم أجد عندهم أو بواسطتهم عملا، رغم أنني أعرف أكواما من الثوريين القادرين على تشغيلي وتشغيل أمثالي الذين لا يتجاوز عددنا في كل سوريا بضع عشرات في تلك السنة (بعدها صرنا آلافا إذ كرّرت سبحة الإفراجات ولم تنته للآن). بل الأنكى من هذا أن بعض هؤلاء الثوريين والإنسانيين الذين يمضون نهاراتهم ومساءاتهم، شبه مقيمين، في فنادق ومطاعم دمشق الضخمة اعتبر نجاحه في عمله في مقابل إخفاقنا في الحصول على عمل تميّزا له علينا... وفوزا له ومرجلة... يا لضعفه وعجزه.

ومن وفقّ منا بتأمين عمل أو مصدر رزق فقد حصلّ ذلك عن طريق مساعدات من عائلته أو عشيرته. إضافة إلى قلة معدودة صادفت ضمن أوساطها الاجتماعية قلة أقل منها من المثقفين الأوادم (غير ثوريين) قدموا لهم فرصة عمل طيبة استطاعوا أن يثبتوا من خلالها أنهم أهل ثقة وأصحاب مواهب. لكن ومع الأسف فما زال بعضنا للآن من دون عمل ثابت أو دائم، أو يعمل لا يعود عليه بأكثر من خمسة آلاف ليرة، رغم أنه متزوج ومنجب، على اعتبار أن الزواج والإنجاب أقل حقوقنا ومتعنا الحلال في الدنيا.

كانت تلك الأيام قاسية، حاولت المستحيل لأثبت لنفسي أنني طليق وبالتالي أنا أخير مني سجيناً، وأنه يجب ألا أحتاج الحياة بمقدار حاجتها هي لي ... ويمكنني فعل ما لا أستطيعه وأنا سجين.

خفت على نفسي خلالها من شطط لا يحميني منه مديح الناس: لم يؤثر فيك السجن، فأنت أنت، مخاطرا، جريئا، عاشقا، غاضبا...، حيا. لكن هل هذا يعني أنني قوي؟ وإن كان ذلك، بماذا تفيدني، الآن، قوة مدعاة لا أحس بها، ولا تمكّني من أكون حرا أو نصف حرا أو ثمنه. هي ليست أكثر من خيبة وخبرة لأظهرها للناس بهيئة قوة. وأنا لست بحاجة، في تلك اللحظة وفي هذه الحال لأحكام قيمة ترضي ذاتي السجينة الخائبة تلك، فأنا أكره أنايا السجينة. أريد أن أكون أنا من دون سجن، فحاجتي هي لحريتي... لخياراتي... لتدخلي في أمور غير أموري الشخصية. فالأنا الحرة لا تنوجد هكذا لوحدها مثل عوسج بري، بل تحتاج إلى غابة من الخيارات. فالأنا في جوهرها هي عبارة عن اختيار قرار أو قرار خيار. فإن لم تكن الحياة بحاجة لأختار قرارا لها... لخيار يدخلني فيها، وإلا انعدمت، فأنا إذن لن أكون موجودا إلا كمجرد ككائن حي. فإن كان محيطي لا يحتاج إلى موافقتي أو معارضتي أو ممانعتي لأمر ما، فكيف أدعي أنه محيطي. فإيا الملكية هنا ليست دليل ثراء في الملك بل دليل وجود الأنا المالكة.

ارتأيت أن أتخلص من كل عاداتي السجنية، تقديرا أنها تحول دون تأقلمي أو اندماجي مع الحياة. فأنا خارج السجن الآن وليس له حضور أو وجود سوى بتلك العادات التي تبقيني أسيره وخصيّه، لهذا إن تطهرت منها أعود بكرة تتشاهني الحرية فتأتينني رغبة راضية وتدخلي لتصيرني حرا: امتنعت عن القراءة وسماع الراديو، لن أقرأ بعد اليوم لتزجية الوقت كما السجين، ولن أسمع أخبار الراديو التي

لا تهمني الآن بعد أن صرت بين الناس وبقلب أخبارهم ... ولن العب
الشدة ولا الشطرنج ... ولن أمشي للمشي ما لم أكن قاصدا مكانا ...
ولن أشارك في نقاشات ثقافية لا تعنيني ... لن أشرب المنة ... لن أجمع
بذور الزيتون أو نوى التمر ... لن أستحم بالماء البارد ولن أكل مرقاً
أحمر ... لن ألبس الروب دي شامبر ولن أعتمر قلنسوة انعرفت بها
سجينا ... لن أستحضر أحلام يقظة حتى لو كنت فيها مليونيرا أو
فحلا ... لن أمارس العادة السرية حتى لو عجزت عن الجماع. صمدت
أشهرًا على هذه الحال، رغم تعبها ومعاناتها، فإن أتخلى عن عاداتي
أحتاج لغيرها، لبديل لها. أليس الإنسان، في بعض المقاييس، هو عادات
وأنماط. خسرت عادات السجن الحميمة جدا ولم أكتسب عادات
جديدة. فليس لي أنا جديدة لها عاداتها وطباعها. بدوت سخيًا بنظر
الآخرين لا طعم لي ولا ظل. وفشلت كذلك في إخفاء كينونتي
الشاذة، فمن لا يعرف عن السجون والمساجين ظنني معتوها، ومن خبر
السجن وعرفه كشف تلبّسي الأخرق.

كانت الأيام تمر علي حينها ثقيلة بطيئة من حمل همّ متابعة
بقية العمر في خسران لن ينزاح. صار الوقت ثقلًا أحمله فوق كاهلي
كذنوبي الكثيرة، لا أعرف كيف سأقضي ساعات يومي، فإن أتسلى
يعني أنني أنتظر أمرا ما ولو كنت لا أعرفه، وإن أعمل فهذا لقصد ما
لا يهمني أن أقصده. صار الغد لعنة مخيفة ... وحشا يتربصني، أحتاج
للعقاقير المهدئة والمنومة لكي أتمكن من مواجهته. عاد الوقت ليكون
مصارعي ولم يصبح مطيّي لأكون طليقا: إذن أنا سجين ولست
طليقا ... عدنا للدائرة الأولى، وكأنها دائرة الطباشير القوقازية:

يشدني السجن من طرف وتشدني الحرية من الطرف الآخر، كل يدعي أبوتي أو أمومتي، لتتخلّى عني الحرية في النهاية كما تلك الأم الأصلية خشية علي أن أنملخ بينهما. ويبدأ أن محاولة إقلاعي عن عادات السجن بقصد التخلص منه أكدت أنني صرت سجين سجن لا فكائك منه على ما يبدو، فكل ما أفعله ليس أكثر من محاولة أسلوب جديد يضاف إلى محاولاتي العقيمة في السجن لمقاومة الانحباس: إذن أنا سجين.

لكن ماذا لو كنت مخطئاً في تقدير الأمر وأني السجين أفضل وأريح مني طليقاً؟ لماذا أعتبر السجن هو الأسوأ طالما أن عاداتي وروحي تشدني إليه، وطالما أشعر بغيرتي عن الحياة؟ بدأ هذا السؤال يصخب دماغى بعد أسابيع على خروجي من السجن، حين انفض الناس عني لحياتهم... حين سئمونى!! ما هذه الكلمة المجحفة بحق الناس! لا أدري كيف سقطت على أوراقي، حاولت شطبها لم أستطع. كتبتها وأنا جالس على الرصيف، كعادتي، فربما كنت سمعتها من أحد المارة أو من راديو إحدى السيارات العابرة، فكتبتها دون انتباه. لا تطيعني الكتابة إلا على الرصيف أمام الفرن الذي أديره، فقد أكون بحاجة لرؤية هؤلاء المارة وباصات النقل الداخلي القبيحة الشكل والسيئة العمل لأشعر كل لحظة أنني خارج السجن، وكى لا أنسى نفسي وأعود حبيسا.

ورطتني هذه السئمونى بباقي الصفحة: أنا لست ممتعا ولا مفيدا لهم. لا أمتلك حلو الحديث، ذاكرتي ومخيلتي تمتلئان بالسجن حتى شحمة أذني وتستحضرانه دوما إلى بوابة وعيي. ولا يرضيني أو

يتمتعني الحديث عن السجن لأي كان، لكنني فعلتها مرة واحدة في تلك الفترة، حين انجدرت للحديث عن السجن دون انتباهي أو إرادتي. حصل ذلك عندما كنت سهرانا في بيت أدخله لأول مرة ولم أكن أعرف أصحابه، وكل ما أذكره الآن عن هذا البيت أنه في حي التجارة. ولا بد كانت بين الحضور امرأة شافة، ولا بد أنها سألتني أسئلة شافة جعلتني أبوح لها بما أحجبه عن الناس. أجزم بهذا الأمر لأن هذا الفيض أصابني ثانية بعد عمر من تلك الليلة، حين جرجرتني، صبيحة يوم، امرأة شافة لأبوح بمخبوءاتي. لم أقو على عدم الذهاب إليها رغم أني كنت أشعر أنها ستجعلني أبوح لها بما أحجم عن قوله لأصدقائي من الرجال لجلافتهم المؤذية، ولو عن غير قصد: أنت كنت في سجن صغير وكنا في سجن كبير. أما المرأة الشافة فيمكنها أن تشف مخابئي روعي ... أفتحها لها طواعية، حتى لو كان الصبح قبل أن أبلغ صحتي وقبل أن يؤانسي صوتي حين يكون مازال برياً كأن لا صاحب له. تُبكي على حالي حين تدمع عيناها مضحية بمكياجها الذي استلزمها كل صباحها. أقدر، إن تبكي المرأة في المساء فمن السهل اعتباره حسرة على يوم مضى من عمر الصبا. أما أن تبكي في الصباح مع بداية أمل بتعويض خيبة الأمس، فهذا تضحية منها لأجلي... لأن أكتب نشوة ولو عن الألم.

حق الآخرين أن يسأموا مني بعد الأسابيع الأولى تلك، ويتركوني لوحدي أستيقظ كل يوم لأعد ركوة قهوتي وأتصل ببعض أصدقاء السجن حسب دورهم الأسبوعي بالاتصال كما برمجته لنفسه. وأحيانا كنت أختلق فعلا ما أو عملا أتفه من أن

يكون بلا معنى لأجد ذريعة للخروج من البيت. وإن لم أخرج أختلق فعلا يحقق لي دورا في بيت أهلي، مثلما غافلت أُمي في غيابها وأعدت ترتيب أساس البيت القليل الفقير. أعدت ترتيب أشياءه التي عُرِفَت على حالها الراهن منذ أُحضرت إلى البيت. لم ترض أُمي، فاستغلت غيابي وأعدت كل الأشياء إلى مكانها، لآتي وأصرخ وأشتُم وأدعي أنني مضطهد حتى في بيت أهلي وأنهم لا يرغبون في وجودي.

ربما سئموا رائحة السجن التي تفوح مني بعد أن ظننت أنهم ألفوها من كثرة وجود المساجين والسجون والسجانين في بلدنا. لكن على ما يبدو أن السأم يتربص بالمألوف، خاصة إذا كان هذا المألوف غير أليف كرائحة السجن.

لم أهتم يوما للروائح قبل أن أعرف هذه الرائحة، قبل أن يغمسوني فيها حتى قمة رأسي وقمة ذاكرتي وقمة أحلامي. قبلها كنت أعرف الروائح وأشمها وأميّزها وأستخدم العطور والأفترشيف، لكن كانت كأي شيء عابر ثانوي في حياة شاب مندفع لا تعيقه الروائح ولا تحفزه ليفعل ما يمليه عليه شبابه. لكن بعد أن عرفت رائحة السجن صرت مهووس روائح: أُقبل على الأشياء أو أنظر منها من رائحتها. قبل ذلك لم تكن تثنييني رائحة الصبغة عن الإقدام عليها، كما لا تشدني إليها. بعد السجن صارت رائحة المرأة شرطا محفورا على ألواح رغبتني. رائحتها وليس رائحة عطرها ... رائحة ثناياها حيث لا تصل العطور أو لا تدوم، وحين لا يمكن لكل عطور الدنيا أن تخفي عني رائحة السجن. فإن فاحت منها رائحة تقارب رائحة السجن

لن تجد في جسدي عضلة واحدة تتوتر أو تشتد...، أنفر مثل حيوان جفل.

مرة، كذبت على امرأتي كذبة وردية، حين كنت بين ذراعيها وكان أنفها يرعى روائح عنقي، بأني لا أتعطر بقصد أن تميزني من رائحتي عن باقي الرجال. كذبت إذ لم أقل لها أني لا أتعطر لأراقب دوما رائحة السجن إن هي مازالت عالقة على روحي. فإن استشعرتها أنادي ابنتاي أضمهما وألاعبهما لتتطرد تلك الرائحة من تحت جلدي.

الرائحة هوية، تفرق بين الأشخاص، فمن رائحتهم يعرفون سجناء أم طلقاء، من غير الرائحة تلبس الحقيقة ويختلط الحدس بينهم. لا أداة ولا اختبار ولا تحليل يكشف رائحة السجن إلا الخبرة، مثل تذوق الطعوم والعطور والخمور. رائحة السجن لا تُوصف، تُعرف ... تُشم فقط... لا أشباه لها في الحياة، اسمها هكذا بالخط العريض: رائحة السجن. من لا يعرفها لينس أمرها ويعش هائنا ... عَطِرا.

أظن أن جسدي استنفذ طاقته أخيرا بعد يومين أو ثلاثة من خروجي من السجن، ولم يعد يحتمل الصحو والبحث عن حريتي، انهارت خلايا أعصابه... أخذه النوم دون إرادة أو قرار أو رغبة، لا أعرف كيف تم الأمر. كل ما أذكره أني صحت من نوم لم أجد قربي أحدا أتبين منه حقيقة الواقع الذي أنا فيه، فاعتقدت، بل قررت أني طليق... فصحت. ومن يومها لا يتم هذا الصحو بتلقائية، ولليوم

وفي كل مرة أستيقظ من نوم ما أذكر نفسي فوراً أنني طليق وأني خارج السجن حتى أتمكن من الصحو. ومازلت أخاف من استيقاظ مبالغت يُشغلني عن هذا التذكير فأجد نفسي سجيناً، وأخاف من لعنة صباحية نتيجة كابوس فأخطئ وأعتقد أنني في السجن وإذ بي أصحو منحبساً فيه. افتقدت اليقين منذ ذاك الاستيقاظ: فربما كل ما أدعيه عن سجنني قبل تلك الغفوة ليس غير كابوس طليقٍ يرعبه السجن، أو ربما ما أحكيه عن حياتي بعده ليس أكثر من حلم سجينٍ يتوق للانعتاق من حبسه عاشقاً حريته، لكن ليست تلك الحرية الحمراء التي تُدق أبوابها بالأيدي المدماة، وليست وعي الضرورة الذي كذبها حذاء السجنان، بل هي فرحي، انتفاء وجع روحي، رجولتي ومقدرتي على الحلم التي خسرتها، على ما يبدو، إلى أبد الأبدين.*

* أنجز هذا النص في 2004/1/17 على أن ينشر في كتاب مشترك مع أكثر من "سجين سابق" لكن المشروع تعثر. وقد تمت صياغته في شكله النهائي هذا في 2005/4/29 في الذكرى الرابعة عشر لإطلاق سراحه.

ملحق

هذان مقالان كنت قد نشرتهما في الصحف اللبنانية في فترة سابقة. اخترت نشرهما في آخر هذا الكتاب ظنا مني أن لهما علاقة مباشرة في الموضوع الذي أكتب عنه، فعلى الأقل يمكن أن يعكسا تصوري ورأيي الآن، بعد مضي كل تلك السنوات، بمسألتي التعذيب والاعتقال والملاحقة الأمنية. وربما يمكن أن يعكسا حالتي النفسية والذهنية بعد خوضي تلك التجربة المذلة في السجن.

لعنة جواز السفر*

نعم أنا الذي كتبت في جريدة «النهار» حكاية يوم من أيام سجنى. كان هذا جوابي عن سؤال المحقق: أليس أنت من كتب عن توقيفه وسجنه في جريدة «النهار»؟.

أريكني سؤاله قليلا فقد فاجأني به، إذ كنت أتوقع سؤالاً عن سبب طلبي جواز سفري، أو إلى أي بلد أنوي السفر، ولماذا؟ كنت محضراً نفسي للجواب عن أي سؤال يخص هذا الموضوع، فأنا مستدعى لديهم بسبب طلب الموافقة على منحي جواز سفر بعدما عرفت أن أمثالي السجناء السابقين استطاعوا الحصول على جوازاتهم أخيراً بشكل سهل وبسيط وبإجراء روتيني لا أكثر، وأن بعضهم سافر إلى بلدان بعيدة أو قريبة وعادوا أو بقي بعضهم في تلك البلدان محتفظاً بحقه في العودة إلى سوريا متى شاء.

* ملحق جريدة النهار 2004/8/15.

تشجعت بعد معرفتي بهذه الأخبار وتقدمت بطلبي حسب الأصول والإجراءات المتخذة في حق السجناء السياسيين السابقين، وإن مضى على الإفراج عنهم ثلاثة عشر عاما مثلي. فأمثالنا تعتبرهم السلطة أنهم خارج السجن ضمن إطلاق سراح مشروط مدى الحياة: ممنوعين من السفر ومن جواز السفر إلا بإذن مباشر من المخابرات وحسب رضاها، ومفروض على بعضنا مراجعة فروع المخابرات بشكل دوري كل شهر أو أقل، يوقفون هذا الإجراء حيناً ويعودون إليه حيناً آخر كي لا ننسى أنه يمكنهم أن يعيدونا إلى السجن بلا تهمة متى أرادوا، وسنبقى طوال سنين حياتنا تحت المراقبة المستمرة وعرضة للاستجواب في كل لحظة.

بعد أيام أبلغوني وجوب المثل لديهم بسبب طلبي. كان بلاغهم هيناً وحامله غاية في التهذيب والأدب، وربما الخجل. على خلاف ما عرفته منذ سنوات عندما تقدمت بالطلب نفسه والإجراء نفسه. يومها بُلِّغَتْ بفضاظة، وكان البلاغ محدداً في اليوم التالي وفي وقت مبكر لمراجعتهم. هذه المرة تركوا لي تحديد اليوم والتوقيت حسب رغبتى ومشاغلي.

ذهبت في اليوم المحدد أخفي قلقي من أن يعاملوني بفضاظتهم المعهودة وعدم احترامهم لأي شخص. هداً بالي واسترخيت منذ ردّ عناصر مكتب الدخول على تحيتي الصباحية. كان رداً مهذباً ومحترماً، وتبدد كل قلقي عندما قابلت المسؤول عن موضوعي. دعاني إلى الجلوس وأخذ مني ورقة الاستدعاء وهويتي، ونادى حاجبه ليمش مباشرة إجراءات أوراقى. كان عادياً جداً لم يتصنع اللطف ولم يمثل

القسوة. رد على مكالمة تلفونية وبعد إنهاؤها توجه إليّ يشكو ركاكة بعض الأعمال الإدارية ومشاكلها رغم توافر الكمبيوتر. شكواه كانت تحمل تخليه، أو تخليهم، عن ادعاء المقدرة والمعرفة المطلقة أمام الخصوم والأعداء مثلي، وكانت تحمل دعوته إليّ للمشاركة في شيء ما ولو كان البحث عن حل لهذه المشاكل. إذاً نحن شريكان مجدداً.

أثناء هذه الدقائق القليلة كان قد انتهى من أوراقه فسلمني ورقة استدعاء جديدة إلى فرع مركزي في العاصمة، وقام وصافحني مودعاً. خرجت بروية وسرت متمهلاً كأنني أغادر وزارة الثقافة، لا يدفعني شيء لاستعجال الخروج من هذا الفرع كما المرات السابقة.

خلال مسيري إلى بيتي القريب كنت مندهشاً وغير مصدق أن مراجعتي لم تدم أكثر من ربع ساعة، في حين أن المرة السابقة استغرقت عشر ساعات على يومين متتاليين لم يقدموا لي فيها كرسيًا أجلس عليه. شعرت برغبة أن أكرر هذه الزيارة مرات لأؤكد أن إجراءات اليوم ليست صدفة أو استجابة لدعوات أمي وزوجتي. مشيت أفكر: كيف استطاعوا أن يتحولوا إلى هذا السلوك بعدما كانت وجوههم وكلماتهم في السابق تدخل إلى النفس كدخول السم إلى الجسد فيرتعش باضطراب، نافراً، نابذاً، قرّفاً من مرارة السم. ربما تكون هذه هي طبيعتهم وكانوا سابقاً يمثلون دور الجلال، ويتحملون مشقة هذا التمثيل، متأملين أن تحقيق واجبهم الوطني بزرع الرعب في قلوب «الجماهير» المؤيدة والمبايعة لقيادتهم، يعوضهم عن هذين التعب والمشقة. وربما يكون هؤلاء غير أولئك، استبدلوهم

بهم ورموا بأولئك في قاع مظلّم خجلين من أن يراهم أحد. لا أظنني سأصل إلى جواب ولو قمت بزيارات عدة لهم.

ارتبك المحقق من إجابتي. فكرر سؤاله بارتباك وكأنه لا يصدق ما أقوله أو لا يقبل ما تؤكد له أذناه. وربما انزعج لأن إقراري الصريح فوّت عليه جولة تحقيق طويلة يخرج منها بطلا باستئصال اعتراي من جلدي. أو قد يكون فوجئ بوقاحة اعتراي بما يظنه جرما توقع مني نكرانه. هو لا يعرف أنني منذ خروجي من السجن قررت ألا تعرف المخابرات معلومة صحيحة عني لا يعرفها كل الناس، وأن كل ما أفكر به أو أرتئيه أو أحلم به أو أتذكره، أكتبه وأنشره وأعلنه على الملأ. بهذا سأجعل عملهم في ما يخصني بلا قيمة، وستكون روايتهم التي يأخذونها من دخلنا القومي ومن إنتاج السوريين أموالا يتقاضونها بلا عمل.

حاول أن يبدد استغرابه من جوابي فسألني: ولماذا كتبتها؟ ولماذا لا أكتبها؟ أجبت، وما الغريب في الأمر؟ فأنا كتبت عن أمور كثيرة. لا. هذه أمرها مختلف، ولماذا اخترت جريدة «النهار»؟ لأنها من أهم الصحف ولأنها تقبل أن تنشر لي. من دفع لك ومن دفعك إلى هذا حتى كتبت؟ لم أستوعب السؤال، فكرره. رفضت الإجابة مستغريا السؤال. خرج من الغرفة وتركني مع ثلاثة عناصر آخرين يتناقشون في قرار قرض للزواج فهمت من حديثهم أنه صدر أخيرا، فأحدهم ينوي الاستفادة من هذا القرض متأملا حصوله على الحد الأقصى للقرض والبالغ ثلاثمائة ألف ليرة، لكن زميله بيّن له بالطرق الحسابية أنه لا يستطيع الاستفادة من أكثر من مئة ألف، إذ أن

صيغة القرار لا تتيح لأي موظف في الدولة الاستفادة من الحد الأقصى بسبب ضعف الرواتب.

انشغلت بهم قليلا ثم عاد ذهني إلى موضوعي متسائلا: لماذا اهتموا بهذه المادة دون سواها. لأنها مكتوبة عن السجن أم لأنها منشورة في جريدة «النهار». لماذا لم يسألني عن مساهماتي في بعض الكتب أو عن مقالات أخرى نشرتها في جريدة «السفير» وفي «النهار» أيضا. فهذه أسهل عليه الحديث بشأنها فهي عبارة عن رأيي في بعض الموضوعات، يمكنه أن يساومني أو يفاوضني عليها، أو يقنعني برأي آخر أو يجبرني على حجب رأيي. أما تلك المادة في «النهار» فليست رأيا لأحجبه أو موقفا قابلا للأخذ والرد. هي حكاية يوم من أيامي الطويلة في المعتقل، هي جزء مني ومن جسدي تتلبسني في ليالي ونهاري، كتبتها ونشرتها علني أرتاح منها لليلة أو لغفوة أستيقظ بعدها مبتسما ولو مرة في وجوه أطفالتي.

كل إنسان يحتاج أن يحكي، وأقل ما يحكيه حكايات أيامه. أنا لم يبق في ذاكرتي سوى حكايات سجنني، كل الحكايات قبله حكاها أهلي مئات المرات خلال أعوام حبسي، وبعده لم تبق لي ذاكرة فقد انتزعوها مني في التحقيق، لتصير كل أيامي بعد السجن مفلوشة مفضوحة أمام كل عابر سبيل فلم يبق عندي سر أرحاه وأهدده، ولا حكايات جديدة أحكيها.

عاد بعد قليل وطلب مني أن أكتب ما اعترفت به، فكتبت. لا أدري إن كان صوابا أني كتبت، فهو لم يجبرني على هذا، بل للأمانة ترك

لي الخيار أن أكتب فأنال جواز السفر أو أمتنع فأعود في الحال إلى بيتي سالماً غير غانم. صحيح أنني احتججت على هذه المساومة العتيقة، وطالما الأمر كذلك لماذا أكلف نفسي السفر من اللاذقية إلى دمشق، لكنني كتبت. قرأ السطر الذي كتبتة، فلم يره كافياً، فطلب مني أن أكتب عن دافعي لنشر تلك المادة. لم نتوصل بعد إلى صيغة تفاهم حول هذه النقطة، فتركت القلم وقلت إنني سأشرح له الأمر ولو احتاج ذلك لساعتين. أخذت أشرح له مدى حاجة الشخص الذي تعرض للتعذيب أن يشكو عذابه وذله للآخرين، فيظن بهذا البوح شفاء لروحه المرعوبة. وصلته الفكرة فقال: تقصد أنها فشة خلق، فقلت يمكنها أن تكون كذلك. تناول الورقة مني بعدما كتبت هذه الفكرة بشكل ما، وأخذ يقرأها بتوتر وتروّ. حقيقة لم أعرف لماذا يرى في إجابتي غرابة، أم يرى فيها جرأة ووقاحة لم يتوقعهما مني. الموضوع ليس كذلك. أظن في الأمر سوء تفاهم غير مقصود من كلينا: أنا أظن أنه لا يحق له أن يسألني عما أكتب، وهو متأكد أن له كامل السلطة الشرعية بسؤالي ويمنعني عن الكتابة، وإن كان لم يفعل، وأنه لا يحق لي، أسوة بكل السوريين، أن نعتقد ما لا يعتقدون أو أن نقول ما لا يفرضون علينا قوله.

تجاوز الموضوع وسألني عن سبب طلبي جواز السفر، فأجبتة أنني سمعت أنه لم يعد لديكم مانع لذلك. قاطعني: وأنت أتيت تتأكد من ذلك بنفسك؟ هذا صحيح، فليس في نيتي ولا في مقدرتي السفر إلى أي مكان أبعد من لبنان، وهذا البلد ليس ممنوعاً عني.

أخذ كل أوراقه بعدما جعلني أوقع وأبصم عليها وغادر الغرفة.

بقيت وحدي هذه المرة بعدما تركنا أولئك الثلاثة. لم يقدموا لي فنجان قهوة ولا كأس ماء كما سمعت أنهم فعلوا مع غيري في الفترة الأخيرة، لربما غيري ليسوا مثلي، فبعضهم لم يفعل شيئا يغضب أحدا، وبعضهم قام بأفعال خطيرة حسب التصنيفات الأمنية. أما أنا لم أبق في موقع الأولين، ولم أرتق إلى مرتبة الآخرين، فبقيت في منطقة انعدام القهوة. فاكثفت بإشعال سيكارة أنظر عبر نافذة أمامي راغبا في التقدم إليها لألقي نظرة على المكان الذي أمضيت فيه ست سنين من فترة سجنني. لم أقم بذلك، خفت إن رأوني سيأخذونها حجة للإساءة إليّ، واستبعدت فكرة أن أستاذن بذلك من محققي عندما يعود فليس للأمر هذه الأهمية.

أشعلت سيكارة أخرى ولم يعد محققي. بدأ الشك والظنون السوداء تتسلل إلى ذهني: هل سيقررون توقيفي. ما حاجتي إلى هذا الجواز اللعين، ألم أمتنع لسنوات عن طلبه وكنت رافضا الحصول عليه طالما سأحتاج من أجله لمراجعة المخابرات بعد تجربتي السابقة بطلبه؟ وماذا لو حصل عليه كل السجناء أمثالي، هل ينتقص من مقامي السجني عدم حصولي عليه. هل يقبلون أن أذهب ليوم واحد أودع فيه زوجتي وبناتي وأحضر فيه عدة السجن وحاجياته؟ أظنهم سيقبلون، فالأمر ليس بهذه الخطورة وإلا لما انتظروا مضي نحو السنة على نشر مقالتي. يا لهذه المقالة اللعينة، لم تأت لي إلا بوجع الرأس، لم أنل بسببها اعتذارا من بوش أو رامسفيلد كما سجناء أبو غريب، ولم أطل شهرة رفعت الجادرجي، مع أنني عانيت أكثر منه. بل بقيت بعدما نشرتها لأيام قلقا منصتا لكل حركة تصدر من ناحية درج

البيت متوقعا قدومهم. وحين طالت الأيام ولم يأت أحد اعتبرت، بمقاييسي الذاتية، وجوب أن أشكرهم على تفهمهم المتطور لحرية التعبير عندنا. لا، لا أعتقد أن الموضوع يستدعي توجسي، وما هذه الوسوس إلا نتيجة إرهابي من السفر وعدم النوم في الليلة السابقة. هذا أكيد، ألم أغضب من سائق التكسي الذي أوصلني ممتعضا من قصر مشواري، فصرخت في وجهه بشدة وهددته وجعلته يقود السيارة كما أريد. صحيح هو المخطئ ولقد استفزني مع أنني رجوته ألا يفعل، لكن لم يكن يقتضي الموقف مني كل ذلك الغضب لو لم أكن مجهدا من السفر والسهر، وهذا هو بلا شك سبب مخاوفي الآن وليس غياب محققي. ضحكت من نفسي من ذكرى حادثة التكسي حين قارنت بين موقعي هناك كيف كنت مثل عنتر وبين موقعي هنا مثل أرنب أو مثل عنتر وقع في مصيدة للأرنب. أين طبقة صوتي تلك التي أخافت السائق غارت في أحشائي الآن، يا لهذه البلاد اللعينة نتبادل فيها كرات الخوف طوال يومنا. من أخاف سائقي اليوم قبل أن يلقاني، ربما زوجته أو أبناءه، وكم مرة اليوم سينتاب محققي الخوف من أشخاص آخرين.

طال غيابه أكثر، أضن ذلك دليل سلامة، فمن تجربتي معهم أعرف أن أمر التوقيف لا يحتاج إلى كثير من الوقت بعكس أمر الإفراج يحتاج إلى سنين. لكن ماذا لو اعتقلوني؟ ليكن، فليس في يدي حيلة، ولست في موقع من يطرح هذه الماذا. لكنهم منذ سنين ملتزمون بحالة أصحاب الرأي المخالف على المحاكم. ومع أن هذه المحاكم غير الشرعية إلا أنها أفضل من الإجراءات السابقة خاصة لقضية

كقضيّتي. توقفت عن هذا الاستطراد: لقد جعلت لنفسى قضية لا أساس لها إلا مخاويلي، ما هي التهم التي يمكنهم أن يوجهوها إليّ؟ هل سيعتبرون أن ما كتبته قلة أدب والجريدة نشرتها تحت صنف الأدب؟ إذن فليقاضوا الجريدة. أم أنهم سيعتبرون قصتي كانت المرجع للجلادين الأميركيين في سجن أبو غريب تعلموا منها أساليب التعذيب ومهاراته. سأرد هذه التهمة جملة وتفصيلا، فروح أبو غريب هي المسؤولة ولست أنا. كما أستبعد اعتبار قصتي إفشاء لأسرار علمية وطنية كما عبد القدير خان. ربما يريدون هم المبادرة والإفصاح عن موضوع الاعتقال والتعذيب السابق ويعتذرون، لكنهم ينتظرون إتمام مرحلة الإصلاح الإداري وبعدها إتمام مرحلة الإصلاح الاقتصادي ليتفرغوا لإنجاز الإصلاح السياسي ينجزونه بهدوء وسلطنة، وبعدها يمكننا جميعا فتح ملفات حقوق الإنسان. فاعتبروا ذنبي أنني فوت عليهم فرصة السبق، وكنت عجولا ولحوقا بكتابة تلك القصة بعد مضي عشرين عاما على ذلك اليوم الذي أحكي عنه، فتوقيتهم يحين بعد ثلاثمائة وعشرين سنة.

لمحته بطرف عيني قادمة فسارعت إلى الالتفات لأنظر إلى يديه. لم يكن يحمل كلبشات بل أوراقا كتبها هو بخط يده نقلا عن أوراقى، بتنسيق يصلح للأرشفة وطلب منى أن أوقعها وأبصم عليها كما العادة، ففعلت من دون أن أقرأ المحضر الذي نظمته فهذا لا أهمية له. ناولته الأوراق ونظرت في عينيه ونهضت من دون أن يطلب منى إذ فهمت من نظراته أن الأمر انتهى ويمكنني العودة إلى بيتي. فسألته إن كانوا سيوافقون على طلبي فأجابني بالإيجاب، وأظنه صادقا. فرغم

أنه لم يتسم لي ولا مرة ولم يبذل جهدا ليظهر لي لطفا إلا أنه كان في غاية التهذيب والكياسة. مددت يدي وصافحته مغادرا بسرعة كبيرة ذاك المكان الذي فقدت فيه الأمان طوال ساعتين. فعلى ما يبدو أن كل إجراءاتهم الجديدة ليست كافية لإدخال الطمأنينة إلى نفسي عندما أقابلهم أو أراجعهم، وهذا ليس بسبب تقصير مني فأنا لا أملك السلطة على نفسي، أما هم فيمكنهم اتخاذ إجراءات كثيرة لبناء ثقة بيننا أقلها الامتناع عن استدعائي حين أريد السفر كحال باقي خلق الله في العالم.

في طريق عودتي إلى اللاذقية سألتني صديقتي إن كنت جادا في نيتي نشر هذه المادة أيضا، مستغربة أنني لا أخاف. هي لا تعرف أنني أكتب هذه المادة لأنني أخاف، وكل ما كتبته كان دافعه الرئيسي هو الخوف أو مقاومة الخوف. بل لم أعرف في حياتي إلا هروبا متواصلا من الخوف، أركض أمامه وهو ظلي. الخوف محشور في حلقي أفيق عليه طوال الليل يخنقني. وأظن أن هذه حال جميع السوريين فكلهم يعانون من الخناقات الليلية ولا يعرفون لها سببا، أما أنا فأعرفه.

فاتني أن أسأل محققي عن رأيه الشخصي في القصة، فربما كان حديثنا في موضوعها أكثر جدوى وسببا لتواصلنا، من الموافقة على جواز السفر.

كبيرة التعذيب*

ليس التعذيب من كبائرننا، ولم يكن كذلك يوما، نحن أبناء الشرق أو أبناء العرب أو أبناء الإسلام أو أهل التخلف. بل كثيرا ما نحله إن وقع على غيرنا ولو كان ذلك بأيدينا. ولا نستهنه إلا إن وقع علينا بأيدي غيرنا كما حصل في أبو غريب. فاستنكارنا لواقعة التعذيب الأميركي للمعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب، جاء بهدف النيل من الأميركيين وليس دفاعا عن المعتقلين، أو غيرة على الكرامة الإنسانية أو صونا لحقوقنا.

ربما لا نمجد التعذيب ولا ندعو له علانية، لكن بكل تأكيد لا ننبدّه ولا نعتبره فعلا حراما، ويمكننا أن نجد في خطابنا الشفهي عند كل الجهات وعلى كل المستويات عبارات وكلمات تبارك التعذيب والإساءة الجسدية للخصوم، ويسهل علينا اتهام الغير بالخصوصومة. وغالبا لا نهتم لأمر التعذيب كونه يقع على الأفراد وليس على الأمة، التي نرى تحققها مستقلا بشكل نهائي عن تحقق الفرد، الذي يقتصر دوره في ثقافتنا على أنه مكلف بحمل رسالة الأمة. ودوما ما نشفع لجلادنا إن كان ابن جلدتنا إن هو شتم إسرائيل ومن في خندقها، بل حتى نحلل له تعذيب أفراد منا بحجة انشاققهم عن مسيرة التحرير. فكل ثقافة حركة التحرر العربي بكل ألوانها لم تنبذ التعذيب،

* جريدة السفير 2004/6/7.

وغالبا ما مارسه قواها وفصائلها باعتزاز ومباهاة. وكان ذلك وفيما خلال الحرب «الأهلية» اللبنانية، خاصة في المراحل التي كانت جهات غير لبنانية أطرافا فاعلة بشكل مباشر فيها، مثل السوريين والفلسطينيين، إضافة إلى اللبنانيين وغيرهم.

ليس هذا للمقارنة بين الانتهاكات الأميركية في سجن أبو غريب وبين انتهاكات أغلب الأنظمة والسلطات العربية إن لم يكن جميعها. فمقارنة كهذه لا معنى لها، وستكون تمييزا للموضوع وتخفيفا من بشاعته. ففعل التعذيب يجب دوما إدانته والتصدي له والتشهير به وتجريمه، بغض النظر عن ظروف الواقعة وعن الجهة الفاعلة أو من يقع عليهم الأذى، ولا يخفف من جريمته إن كانت جهات أخرى تقوم بأبشع منه أو أفظع.

وإن كان هناك شيء في هذا الموضوع تجوز فيه المقارنة وتصح، فليس واقعة التعذيب بل ردود الأفعال عليها والمواقف التي اتخذت منها، بدءا بقرار الصحف الغربية بنشر الصور. فالمقارنة يجب أن تقوم بين تعاطي المثقفين والإعلاميين والسياسيين الغربيين مع الموضوع وتعاطي أمثالهم من العرب وجيرانهم الإيرانيين. فإذ نرى أن الغربيين تناولوا الموضوع مستنكرين ممارسة الإدارة الأميركية لسجن أبو غريب، غيرة منهم على قيم الحضارة الغربية التي نسميها القيم الإنسانية، ودفاعا عن حقوق المعتقلين العراقيين، بالإضافة إلى غيرتهم على العناصر المرتكبين فعل التعذيب مما سيصيبهم من أذى وتشوه جراء ممارستهم تلك الأفعال. أما أغلب المثقفين والإعلاميين والسياسيين العرب فلم يهتموا أبدا بضحايا التعذيب، إذ نلاحظ أن

كل صراخهم وكل قولهم هو محاولة للنيل من الولايات المتحدة، بل بدا على بعضهم السعادة من حدوث الواقعة لشعوره أنه ضبط الأميركيين بفعل شائن يدحض ادعاءهم بنشر الحرية وقيم الديمقراطية. هؤلاء «البعض» كاذبون بادعائهم الغيرة على حقوق الإنسان، وكاذبون بادعائهم الدفاع عن القضايا العربية ومناصرتهم شعب العراق، بل وكاذبون أيضا بمعاداتهم للإدارة الأميركية. وهؤلاء «البعض» حاولوا قاصدين تلميع صورة أنظمة الاستبداد العربي وإغماض عيوننا عن ارتكاباتنا بحقوقنا، حين برروا تركيزهم على فضيحة أبو غريب وإهمالهم ارتكابات الأنظمة العربية، بأن الولايات المتحدة تدّعي نشر الحرية والديمقراطية، أما الأنظمة العربية لم تدّع ذلك. وهذا غير صحيح، لأن هذه الأنظمة ادعت دوما أنها حاملة رسالة خالدة لإقامة الحرية والعدالة الاجتماعية.

إن مجرد نقل الموضوع من مجاله الحقوقي والإنساني إلى البورصة السياسية والاكتفاء بمحاولة تحقيق نقطة كسب على الولايات المتحدة هو انتقاص وإضعاف من حجم الإهانة التي وقعت على المعتقلين العراقيين. فليس مهماً من ناحية المعتدى على جسده أو كرامته (أستند بهذا على تجريتي الشخصية) إن كان المعتدي ابن جلدته أو محتله أو غازيه، بل ربما يكون الوقع النفسي عليه أكبر إن عذبه ابن جلدته.

ليس التعذيب تحصيل حاصل لوجود الاحتلال، كما أنه ليس تحصيل حاصل لوجود أنظمة استبدادية أو غير ديمقراطية. هذا تسخيف لبشاعة التعذيب أو لأي انتهاك لحق من حقوقنا. فكما أن

انتهاك حقوقنا ليس تحصيل حاصل لأنظمتنا الاستبدادية، فذلك ليس إقرارها أو الدفاع عنها جزءاً من سلة أو «بقجة» أمور تتحقق آلياً بتغيير هذه السلطات. فثقافة لا تعتبر التعذيب الجسدي للأفراد وإهانتهم من الكبائر، وترى أن مقابر صدام الجماعية تحصيل حاصل لاستبداده وللدعم الأميركي له في فترة ما، ثقافة كهذه لا يمكنها إنتاج أنظمة ديمقراطية ولا حمايتها في حال تحققت في غفلة تاريخية.

وليس التعذيب والاعتقال السياسي ومنع الحريات تحصيل حاصل لتخلفنا، ولا هو قدرنا أو أحد مكونات هويتنا. بل ربما قبولنا بهذا الأمر وتواطؤنا معه يمكن أن يكون، بوجه ما، سبباً لتخلفنا. وقد يكون المفصل الأساسي للانعطاف عن نفق التخلف، أو العتبة الأولى لدخول باحات الحضارة، البدء بإكبار حقوقنا الفردية وتحريم قطعي لانتهاكها من أي جهة ولأي سبب، وتجريم تعذيب أفراد منا، والامتناع عن تقديم شفاعات للجلادين لا إن واجهوا أميركا ولا إن جابهوا إسرائيل. ولا نهو من انتهاكات الأميركي، أو غيره، لحقوقنا بحجة أن سلطاتنا تقوم بأفزع مما يقوم هو به. أشك بأن الصور التي رأيناها عن سوء معاملة المعتقلين في سجن أبو غريب هي كل ما قام به السجانون الأميركيون، فلا بد أنهم قاموا بأفعال أشنع وأفزع لم تطلها الكاميرات الغربية، ولم يلحظها أو يهتم بها غالبية الإعلاميين والمثقفين والسياسيين العرب، المشغولين بإثبات أن الوجود العسكري الأميركي في العراق هو احتلال وليس إرسالية تبشيرية، ويروجون أن ضرر هذا الاحتلال يقع على التراب وليس على المعتقلين أو الجوعانين

أو البشر العراقيين. لهذا نجد أن قوافل إمداداتهم ومعوناتهم توقفت بعد سقوط صدام، لأن زيادة عدد المرضى والجوعى والمعتقلين الآن يمكن أن يعمق المأزق الأميركي.

أميل إلى الاعتقاد بأن ممارسة السجانين الأميركيين سببها نظرتهم المتعالية للإنسان العراقي، واعتبار حقوقه مستباحة للغريب كونها مستباحة أصلاً ودوماً للغريب. ولا أرى أن واقعة سوء معاملة المعتقلين وتعذيبهم في سجن أبو غريب هي أصيلة لدى الأميركيين، وإلا لما كان الذي أثار الموضوع واعتبره فضيحة كبرى هم الإعلاميون والمثقفون الأميركيون، رغم أن دافع بعضهم لم يكن غيرتهم على العراقيين بل على وطنهم الولايات المتحدة، حين اعتبروا أن تلك الارتكابات التي قام بها مواطنون أميركيون تشكل مساساً وخرقاً للقيم التي يجتمع عليها الأميركيون، ولقد عبروا صراحة أنهم ضد التعذيب إن وقع عليهم أو أوقعوه هم على غيرهم، معتبرين كلا الأمرين يسيء لقيمهم واجتماعهم. ولم يخل هذا الأمر من مهزلة حين أصبح لعدة معتقلين غير معروفين هذا الشأن المهم وهذه الحفاوة الإعلامية (التي أثارت غيرتي) لمجرد أنهم تعرضوا للتعذيب على أيدي جنود أميركيين، في مقابل عشرات الألوف من المعتقلين العرب تعرضوا للتعذيب على أيدي «وطنية»، فلم ينل هؤلاء اهتماماً من أحد، رغم أن بينهم الكثير من الأسماء المعروفة والمشهورة. ولم يعتذر منهم أحد، لا رئيس ولا وزير ولا برلمان ولا مجرد جندي. ولم يتعهد أمامهم أحد بعدم تكرار مثل هذه الأفعال، بل على العكس تماماً، فمن سبق وانتهكت حقوقه مرة عندنا على غير يد الأميركيين

تستباح كل حقوقه، ويفقد أي ضمانات، ويبقى عرضة للاعتقال المتكرر وإساءة المعاملة على أبسط الأمور. قد يكون هذا الجانب هو أكثر ما يستدعي المقارنة بين الإجراءات والمواقف التي اتخذتها الإدارة الأميركية ومؤسساتها الرسمية، كالاعتذارات والتعهد بمحاكمة كل المتورطين بهذه الفضيحة، وبين ما تقوم به الآن العديد من السلطات العربية من مثابرتها على انتهاك حقوق مواطنيها. فالسلطة السورية، كمثال، زامنت اعتقال طلاب وناشطين في حقوق الإنسان، وأساءت معاملتهم (بحسب بيانات هيئات حقوق الإنسان السورية)، مع فضيحة سجن أبو غريب. والأُنكى من هذا قيام الإعلام السوري وبعض المسؤولين فيه بحملة على الولايات المتحدة مستهجنين فيها ما حصل في سجن أبو غريب.

أتمنى أن نستفيد مما حصل في سجن أبو غريب ورد الفعل الأميركي بتجاوبه وخضوعه للإعلام، فنجعل منه درسا، عسانا نحاول أن نكرس استنادا له أن تعذيب أي إنسان، عربيا أو أعجميا، هو كبيرة لا تتساوى معها أفعال أخرى، ولا تبررها أو تخفف منها أي ادعاءات سياسية. وأن التعذيب جرم مستقل عن الاعتقال وعن الأحكام الجائرة وعن الاغتيال أو الإعدام أو القبور الجماعية. وأن وقف الانتهاكات الأميركية في المعتقلات العراقية يمكن أن يتم قبل تحرير العراق، وأن السجناء العراقيين بحاجة للحماية من التعذيب وهم في ظل الاحتلال.

ترحب دار بئرا بكل المساهمات التي تتدرج ضمن سياق
حكايات السجن، إن كانت مكتوبة من قبل سجناء أو أهاليهم،
أو من قبل سجانين، أو من قبل طلقاء شهود على مساجين.

«تست أنا ذاك السجين الأول، لكنني كنت أولاً. فكل سجين هو سجين أول. أعدت اكتشاف السجن، مثل غيري، من جديد. لم أقبل ولم أسلم باكتشافات السابقين. ففي السجن لا يوجد معلم ولا خبير ولا صاحب طريقة».

«ليس بداهة أن يكتب السجين عن سجنه كما يتخيل البعض. وليس واجبا عليه أن يروي حكايات السجن فضحا للسجان. فالسجن بعد أن يمضي يتحول إلى حكاية تافهة بالمقارنة مع معاناة السجين. لدرجة أن البعض يتجنب التطرق بالحديث إليها خشية حضور ذكرى آلامه. وأنا من هؤلاء البعض. فلم أحك عن سجنى كثيرا طوال أربعة عشر عاما مضت على خروجي منه. أذكره كثيرا. لكن ذكره غير حكايته. حكايته هي حكاية السجين وليست كلاما عن السجن. وشتان بينهما، فالحديث عن السجن أهون وأيسر وأقل وجعا، رغم أنه أكثر خطرا من الناحية الأمنية».

حكاية السجين حكاية مرارة وذل، اعتراف بالخزي والخسارة. وحكاية السجن فعل انتقام وثار وتعويض نفسي.

الآن قررت أن أدفن حكاية سجنى وأعلن عليها الحداد، بأن أبوح ببعض حكاياتها على العلن.

توهمت أن سكوتي عن حكايات سجنى سيمكنني من دفنها في خرابات الذاكرة. إذ قدرت أن طيها وحجبها عن حضوري قد يمكنني من الانعتاق منها ومن كبجها لعزيمتي. لكن تبين العكس من ذلك. فدفن إحساس السجن وتجربته هو عكس مألوف الدفن، فهو لا يتطلب الطمر بالتراب والحجارة عميقا في الأسفل إبعادا لرائحته واقصاء لذكراه، بل يتطلب نبش قبور الذاكرة ونصب الجثة في مواجهة العين وتحت الأنف. أمام عيني وعيونكم حتى لو زكمت أنوفنا. فرائحة السجن لا تغور في الأعماق ولا تتحلل في البواطن لا بد لها، لكي تهجرني، أن تملأ كل الأنوف.

الآن قررت أن أدفن حكاية سجنى وأعلن عليها الحداد، بأن أبوح ببعض حكاياتها على العلن».